سلسلة التجربة الفلسطينية

أوراق شاهد حرب

زهير الجزائري



مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

أوراق شاهد حرب

زهير الجزائري

Diary of a Witness to War

Zuhair Jaza'iri

This book is published as part of an agreement of cooperation with the Heinrich Boell Foundation

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة هينرخ بُل

تصميم وتنفيذ مؤسسة نادياً للطباعة والنشر والاعلان والتوزيع
رام الله - هاتف ٢٩٦٠٩١٩ - ٠٢

أوراق شاهد حرب

زهير الجزائري

سلسلة التجربة الفلسطينية

تسعى «سلسلة التجربة الفلسطينية» وهي السلسلة السادسة والجديدة من منشورات **مواطن** الى تعريف القارئ بنواحي محددة ومتنوعة من التجربة الفلسطينية، وفي الشتات على وجه الخصوص. إن نقل هذه التجربة ، أو جوانب مختارة منها على الأقل، يكتسب أهمية كبيرة، خاصة إن تعدى هذا النقل البحث الجاف ليرسم صورة حية للواقع الفلسطيني المعاش، سواء كان ذلك في تجربة المقاومة في الأردن، أو في تجربة الحياة في مخيم اليرموك أو في مخيمات لبنان، أو تجربة الحرب الأهلية في لبنان و«حرب المخيمات» أو تجربة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في خضم الصراعات العربية والمساعي المتعددة للاستحواذ على القرار الفسطيني.

إن الأغلبية العظمى من السكان في فلسطين، بما في ذلك فلسطينيو «الداخل»، لم يعيشوا تجربة الشتات والمنافي ولم يعاينوها وجدانياً بأبعادها المتنوعة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو نفسية. وبنفس المقدار فإن فلسطينيي «الشتات» لم يمروا بالتجربة الحياتية للفلسطينيين تحت الاحتلال أو داخل الخط الأخضر.

إن جسر هوّة التجربة الحياتية بين قطاعات الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده المختلفة هو أحد الأهداف الأساسية التي تسعى إليه هذه السلسلة.

المحتويات

قامـوس الحـــرب

تقديم

عند نهاية الستينيات، وبعد معركة الكرامة، اندفع المئات، إن لم يكن الآلاف، من الشباب العراقيين عبر الحدود العراقية – الأردنية للالتحاق بالمقاومة الفلسطينية. ذهبوا إلى الأغوار وعاشوا تجربة الحرب والقواعد العسكرية. كان أغلبهم في العشرينات من عمره. وكان من بينهم شعراء ورسامون وروائيون وصحافيون مقبلون، إضافة إلى سياسيين وأناس عاديين، أتوا جميعا ليشاركوا في صناعة حلم عربي. فلم تكن المقاومة الفلسطينية يومها حدثا فلسطينيا، بل حدثا عربيا يؤشر على الرغبة في الخروج من الهزيمة وإيقاد شعلة الأمل على امتداد المنطقة العربية كلها.

من بين هؤلاء الشباب العراقيين كان زهير الجزائري صاحب هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ، والذي ظل منذ تلك الأيام الجرينة والمجيدة على علاقة لا تنفصم مع الحركة الوطنية الفلسطينية وصحافتها، في لحظات الأمل، كما في لحظات اليأس والهزيمة.

فبينما عاد الكثيرون إلى ديارهم بعد هزيمة أيلول العام ١٩٧٠، ظل زهير الجزائري يركض وراء الأمل، متابعا تجربة المقاومة التي صارت جزءا جوهريا من تجربة حياته، وحياة جيل كامل من المثقفين العراقيين.

ومن الأغوار إلى سفوح جبل الشيخ إلى الجنوب اللبناني إلى بيروت مشى الجزائري مع الفلسطينيين في الشتات وعاش معهم تجربتهم العريضة، والمخيفة في كثير من الأحيان. وفي هذا الكتاب يحاول الجزائري أن يقدم لنا جزءا من هذه التجربة التي عاشها بعين يقظة، عين كاتب وصحافي ومناضل.

ولعل أشد صفحات هذا الكتاب تأثيرا هي المقابلات «الرهيبة» التي أجراها الكاتب مع الناجين من مذبحة تل الزعتر، التي قامت بها قوات الكتائب وحلفاؤها من القتلة ضد اللاجئين الفلسطينيين. ففيها يقدم الكاتب الحدث الفظيع، بكل بشاعته على ألسن الذين نجوا وبشكل يصدم حتى أشد الناس هدوءا وأكثرهم استعدادا للقبول بالحقائق الواقعية. هذه المقابلات الصادمة تطالبنا بأن لا ننسى، وأن لا نقفل ملفات القتلة الملعونين.

والجزائري، الذي رأى وجوه الناحبين، ورأى وجوه الأطفال الذين قتل آباؤهم وأمهاتهم أمامهم، فكتب عن ما رأى، يواصل تقليدا ثقافيا وسياسيا عراقيا- فلسطينيا مشتركا، يقوم على التضامن والمشاركة. بدأ هذا التقليد قبل العام ١٩٤٨، عندما شارك، مثلا، عدد من المثقفين الفلسطينيين في الحرب ضد البريطانيين عقب ثورة رشيد علي الكيلاني، واستمر متواصلا منذ حرب العام ١٩٤٨ حتى ثمانينيات القرن العشرين مع عشرات المثقفين العراقيين الذين عاشوا تجربة حصار بيروت.

إنه تقليد ثقافي لا ينقطع، في السلم والحرب، مثّله من الجانب الفلسطيني حنّا بطاطو وجبرا إبراهيم جبرا وآخرون، ومثّله من الجانب العراقي عشرات المثقفين، شعراء ورسامين وسينمائيين وصحافيين، الذين عاشوا تجربة الشعب الفلسطيني حتى نخاع عظامهم.

هؤلاء في الواقع فلسطينيون بقدر ما هم عراقيون، مثلما أن بطاطو وجبرا كانوا عراقيين بالقدر نفسه الذي كانوا فيه فلسطينيين. ولا يمكنني كواحد أطل على تجربة هؤلاء المثقفين العراقيين وعاش معهم أن أفصل بين منبتهم العراقي وتجربتهم الفلسطينية. لقد اكتسبوا حق المواطنة الفلسطينية بالتجربة وعمدوها بالنار والعذاب.

كتاب **أوراق شاهد حرب** لزهير الجزائري يقدم لنا ملمحا آخر من ملامح تجربة الشتات الفلسطيني بعين مثقف عربي عاش هذه التجربة وراقبها على مدى ثلث قرن. لذا فهي أوراق تستحق القراءة.

زكريا محمد

اللاجئ والمقاتل والمذبحة



الوليد الأول

في المخيم رأيت الوليد الأول... فقد حملته «ستّه» مقلوبا للأسفل، من غرفة الولادة إلى باحة البيت المشمسة بخطوات نشيطة لا تناسب بدانتها المتمايلة، ورفعته أمام عيوننا، نحن الجيران الذين سهرنا الليل مع صراخ أمه، بذلك الفرح الذي يصعب وصفه بغير الحياة وهي تسترد:

- سنية ولدت صبي!

درفات شبابيك بنايتنا كانت تفتح تباعا على تلك الباحة، وبالمشاركة الغريزية التي تجمع أمهات المخيم عند ألم المخاض وصرخة الولادة يتتالى السؤال ذاته:

- بشّري يا أم الحسن؟

والجواب نفسه:

- صبي من فضل الخالق.

تسكب خالته الشابة الماء من القسطل (برياحة، نتفه نتفه!) حسب توجيه الأمهات اللواتي احتشدن حوله.. يبسملن ويباركنه، بينما تربعت سته على الأرض لتزيل خثرات دم عن جسد مزرق يرتعش كسمكة. أمه بدأت تسترد إلى وجهها دما دافئا بعد الشحوب الطويل، وتسترد أنفاسا بطيئة رخوة بعد توتر ألم الولادة. طلبت من أمها أن ترفق بالطفل الصراخ، فنهرتها الختيارة:

- بتعلمي مين يا غشيمة؟ أمك ولدت ستة، عاشوا، من حمد الله، عالمجدرة، ثلاثة منهم حمّالة «بي سفن»!

وتلفّ الوليد بتلك المراسة التي كسبتها من أولاد وأحفاد لتعيده ثانية إلى أمه...

لن أرى في حياتي اللاحقة ذلك الوضوح والعراء الذي ولد به طفل المخيم صباح يوم من حزيران ١٩٧٠.. فكل آلام الولادة وفرحتها ستختفي في المدن داخل غرف تخدير وعمليات وصناديق زجاجية، وممرضات متمرسات يقدمن لنا كائنا تم تصنيعه، ويحمل رقمه حول معصمه.

وفي المخيم رأيت القتيل لأول مرة في حياتي: تركت آلة التصوير جانبا وذهبت مع المسعفين متابعا خيط الدم الذي يسيل من النقالة، أستحثه بأعصابي لكي يتمسك بالحياة لحظات أخرى ريثما تصل سيارة الإسعاف في حافة المخيم... كان زعيق السيارة خادعا، كما عرفت فيما بعد، فقد مزقت شظية المورتر أحشاءه.

سأتذكر ذلك الوليد وذلك القتيل كلما عدت للمخيم؛ المتقلب، المقاتل، المقصوف، المحاصر.

في العام ١٩٧٠ رأيت المخيم للمرة الأولى بعيني بعد أن رأيته بمخيلتي عبر قصيدة عبد الوهاب البياتي (الملجأ العشرون / ما زلنا بخير والسلام / والقمل والموتى يخصون الأقارب بالسلام).. من جبل الحسين في عمان يبدو المخيم ركاما لا فسحة فيه، أقرب لأحزمة الفقر التي تحيط بالمدن الكبيرة. دخلته مع صحافي سويسري ونحن نهيئ أوراقنا وعقولنا لإعطاء المأساة منطقا ما. ونقدم الذكاء على العاطفة ونحن نحاول تقدير فترة النزوح من مظاهر بسيطة مثل وجود حديقة في علب صفيح، أو باب مطلي بالدهان، أو

دخول الحجر في البناء، ونقيس إمكانية التطبع من كثرة الأشياء الثابتة. وكان تغيرا هائلا قد حصل في توزع الشعب في أعقاب الهزيمة.. فقبل حزيران كان ١,٣٤٥,٠٠٠ من الفلسطينيين البالغ عددهم ٢,٣٥٠,٠٠٠ قد أصبحوا لاجئين. بعد هزيمة حزيران أصبح سكان الضفة الغربية ٤٥٠,٠٠٠ وسكان قطاع غزه ١٣٠,٠٠٠ لاجئين داخل الوطن. وخلال لقاءاتي في المخيم كنت أرى ثلاثة أجيال: الجيل المهزوم من الفلاحين الذين تركوا أراضيهم، وجيل وسيط من أبناء المهزومين عاش صباه في الوطن وما تبقى في مناطق اللجوء العربية، وجيل ثالث ولد في المخيم ولم يعرف الوطن إلا من أحاديث الكبار.

نموذج الجيل المهزوم هو المواطن أبو جمعة. عمره حين التقيته ٦٢ عاما. كان قبل النزوح مزارعا من قرية عين غزال جنوب مدينة حيفا. وحسب أول تقرير رفعته الأونروا الى الأمم المتحدة بعد حرب ١٩٤٨ فإن «أبو جمعة» كان واحدا من شعب يشكل الفلاحون ٦٥٪ من سكانه، يعيشون في قرى يقل تعداد سكانها عن ٥٠٠٠، ويقومون بزراعة الحبوب والقطاني والخضروات والفواكه، وبصورة خاصة الحمضيات والموز، ويقومون بتربية قطعان الغنم والماعز وغيرها من المواشي. ومع أن مساحة الأرض التي يملكها الفرد ضئيلة (زهاء نصف مساحة الأرض التي تعتبر في مستوى الكفاف) فقد كان القروي يملك كلا من أرضه وبيته.

التقيته أولا في مخيم البقعة في الأردن، وبعد أحداث أيلول ١٩٧١ جمعني معه فندق القدس في محطة الحجاز بدمشق، حيث تجمع المقاتلون المنسحبون من الأردن، وافتقدته تماما في مخيمات لبنان...

في مخيم البقعة دار بيننا حديث طويل عن الأرض التي تركها هناك ومن أجلها أصبح يعيش الزمن مقلوبا.. قبل أن يصبح مقاتلا كان الحنين هو الفعل السائد في سلوك هذا الفلاح المرتبط بالأرض.. به يتوهم اتحاده مع المكان الذي فارقه.

وقد اتجه حنينه إلى مكان وبيت محدّدين حين أخذني معه في الوصف الملح إلى جبل الكرمل، ثم التلال نحو البحر في طريق متعرج تتقطر مياه العيون من صخوره، وبعد كل عطفة جبل تنفرش القرية قرب عين الماء كأنها الفردوس بعينه، وفي وسط مرج (بين ثلاث أشجار غرب، أعرفها واحدة واحدة، يقع بيتنا. في الليل وعندما تخلو القرية من الناس تتسلل الغزلان من الأحراش المجاورة وتحك قرونها بجدرانه). لن يأتي الوطن كله ولا مفهومه في خيال أبو جمعة، إنما مكان منه محدد بالاسم والصورة، لأن الذكريات تصبح أوضح وأقرب إلى المنال كلما ارتبطت بالمكان. ففي المكان يعجز الزمن عن تسريع الذاكرة التي تتجول ببطء بين لحظات الثبات السعيدة. وكلما ازداد التوق، أوشك الوهم أن يتحول حقيقة، فيعيد الدورة بتغذية الحنين الواهم للمكان.

سيل من اللعنات وتقريع الذات يبدأ حالما أسأل أبو جمعة عن النزوح، «نستحق كل هذا الذل، بل أكثر، ومن حق الأبناء أن يلعنونا صباح مساء». وعندما أسأله عن السبب الذي دعاه للنزوح العام ١٩٤٨ يتحدث عن شيء يشبه القدر: «كنا نخاف على أعراضنا أكثر مما نخاف على أنفسنا». المجازر الجماعية التي قامت بها منظمات شتيرن وأرغون وهاغانا في دير ياسين وقرى الخليل وغيرها، فعلت فعلها في الخيال الفلاحي المبالغ الذي ضاعف هذه المجازر، وركز على النقطة الحساسة التي لا تحتمل: «هتك الأعراض». الخطر الجماعي الذي يستهدف شعبا بأكمله تفتت في ذهن الفلاح المنكفئ على ملكيته ليقتصر عند حدود عائلة تريد الحفاظ على عرضها، ونقاوة نسبها، حتى لو تطلب الأمر التضحية بالأرض. انعكس هذا التفكك على الشكل البدائي للمقاومة: مجموعات صغيرة متناثرة ومقطوعة عن بعضها تخوض دفاعات سلبية عن قرية، منطقة ريفية، حارة. ويبدأ اليأس حالما يفقدون المكان الذي دافعوا عنه. وآنذاك، يبدأ النزوح من مفارقة البيت.. «بعد أن أقفلت الباب وتركت البيت والأرض لم التفت أبدا إلى الخلف حتى وصلت جبل الشيخ، وآنذاك وقفت والتفتّ إلى الخلف

فامتدت أمامي سهول فلسطين، وبحيرة طبريا تلمع كمرآة. آنذاك جلسنا على الأرض نبكي بنشيج واحد.»

حين التقيناه، كان أبو جمعة قد قطع شوطا طويلا حتى تقبل حياته كلاجئ. في البداية علل نفسه بأن الأمر مؤقت وإنه عائد بقوة قدر لا يعرفه، واتكأ على احتمال عودة جيش عربي. لمرات استيقظت أوهامه مع خطب الزعماء العرب.. بدون هذه الأوهام ما كان باستطاعته أن يتوافق مع الزمن الذي يمر عليه. وفي بداية الأمر، كان هناك تردد وغصّة مع بناء كل حجر داخل المخيم أو زراعة أية نبتة. في المكان الآخر يكاد ذلك يأخذ معنى خيانة الذات لأنه ينطوي على إقرار بواقع ضد النازح الذي يصر على أن وجوده هنا طارئ. وقد كانت لحظة القطيعة مع الوهم تتصل بالقرية ذاتها، حين عرف أبو جمعة أن قرية الذكريات قد هدمتها البلدوزرات الإسرائيلية، وأقيمت في جنوبها مستوطنة، ومحل بيته أقيمت منجرة. منها ترك أمره للزمن ولحيل الحياة لتتكفل بأن تنسيه هول الفاجعة. ولكنه في حقيقة الأمر تآلف مع ازدواجية مؤلمة: أنه هنا وفي الوقت نفسه هناك. يشيد حياته في هذا المخيم، بينما تطوف ذاكرته حول ذاك البيت الذي تركوه وتركوا معه معنى وجودهم، حاضرون في هذا الزمان الذي تلا الهزيمة، وفي ذاك الماضي نفسه الذي بدونه ليست هناك بارقة أمل. ويصل هذا الشرخ بين المكانين والزمانين حد الفجيعة اليومية، حين تكون الأرض السابقة على مرأى البصر في مخيمات الضفة الغربية.

الأسرة في المخيم

ستنعكس هذه الازدواجية على حياة الأسرة النازحة.. ففي الوطن كان الفلاح الفلسطيني يملك أرضه وبيته. وعلى الرغم من صغر مساحة الأرض، فأنها توفر له ما يعادل ٣٠-٤٠ دولاراً شهريا، وهو دخل يعتبره تقرير الأونروا عالياً إذا قيس بمعدلات الأجور في الشرق الأوسط آنذاك. وهذا الاكتفاء الذاتي جعل ارتباط الأسرة بالخارج الاقتصادي ضعيفا. كما أن شكل البيت يصون هذه الاستقلالية ويؤطرها، فالجدران عالية ومغلقة من الخارج، وكل امتدادات البيت وانفتاحاته نحو الباحة الداخلية التي تنمو الحياة فيها وتتحرك بمعزل عن الآخرين.. وبذلك البيت والمزرعة الصغيرة تملك الأسرة عالمها ولا تتخطاه. في هذه الأسرة المغلقة لم تكن عبارات (الأب والأم والأخ والأخت) ألقاب شرف فحسب، بل تحمل معها التزامات متبادلة ومحددة تحديدا تاما وجديا. لذلك، يكون الأب، المنتج الرئيسي، رب هذه المملكة الصغيرة وله حق رسم الحدود، وتنظيم الفروض بين النساء والرجال والكبار الصغار.

هذه الحياة الأبدية تزعزعت إلى درجة كبيرة في المخيم. فمع فقدان الأرض كوسيلة إنتاج، غاب الأساس المادي لسلطة الوالد المعنوية الذي وجد نفسه في موضع الحرج أمام العائلة كلما اصطدم بسؤال العائلة الصامت عن لقمة الغد وكسوة الشتاء. ولمرات كثيرة يعود الأبناء الكبار وأيديهم في جيوبهم وقد أشاحوا بوجوههم خائبين بعد ان فشلوا في الحصول على عمل في الدول

المضيفة، حيث تشمل البطالة ثلث اليد العاملة الفلسطينية في اللجوء. ولذلك، يضطر الوالد إلى التخلي عن كبريائه حين يعلن في اجتماع يضم الكبار والصغار، الرجال والنساء، أن الأمر خارج عن إرادته. وكان هذا الكبرياء قد تزعزع قبل ذلك أمام شبابيك وكالة الغوث، حيث وقف الوالد والأبناء والرجال والنساء سواسية بانتظار حصصهم من الإغاثة. وفي مذكرات غير منشورة للمواطن الفلسطيني حسين مطر يصف هذا المشهد: «لقد أشحت بنظري خجلا وبكيت طوال الليل حين رأيت والدي ممسكا بصحنه في الطابور الطويل بانتظار حصته من الإغاثة. ولم أعد قادرا على النظر في وجهه. وحتى لو نظرت لا أصدق: أهو نفسه الذي كان ممسكا ببارودته واقفا على طوله بانتظار العدو؟!» ذل المنفى والمخيم وطابور الإغاثة سيتكفل بزعزعة حواجز التراتبية بين الكبار والصغار، وبين الرجال والنساء. وقد يستعيض الأب بالصراخ الغاضب لتغطية عجزه عن توفير أساس مادي لهيمنته، ولكن المخيم سيتكفل بإزالة آخر حصونه.

استقلالية الأسرة أصبحت متعذرة في مخيم اللجوء. فعلى عكس البيت المسور المغلق في الوطن، يقع الفضاء مباشرة بعد باب الخيمة أو كوخ الصفيح. حتى الأحاديث الإنسانية الخافتة بين الزوج وزوجته يمكن أن تسمع من الجيران. في البداية كانت المياه والمرافق جماعية، وتنجز أكثر الأعمال المنزلية في الفضاء الخارجي. وبذلك تلغي استقلالية الأسرة تحت ضغط نظام المخيم، نظام المأساة الشاملة. كما أن الكوارث الطبيعية المتتالية، كالسيول والعواصف، تفرض نوعا من الموقف الجماعي المرتبك. فحين تكتسح السيول والعواصف الجدران القماشية أو الصفيحية تزول الحواجز الواهية وتلتحم أيدي النساء بأيدي رجال غرباء لإعادة تثبيت وتد خيمة، أو إسناد حاجز صفيح، ويصبح المخيم بكامله عائلة عارية دون سقف وسط الإعصار.

لكن هذا الاندماج كان تراكميا لوحدات لا تستطيع التفرد ولا التكتل. حقا إن ظروف المخيم المتشابهة تعطيه بعضاً من ملامح طبقة، غير انها لم تكن طبقة

ديناميكية لأنها تعيش على ماضيها دون أن تمتلك أفقا قادما. ولذلك عجز المخيم كحاضنة للهوية الوطنية عن إفراز تنظيم سياسي وبقي القرار الفلسطيني مرهونا بالدول المضيفة. فلا قرار لمن لا مكان له. وكان العالم ينظر إلى الفلسطينيين كجماعات وفلول منكوبة ويتحاشى تسميتهم لأن التسمية ارتبطت بالمكان. ومنذ القرار ٣٠٢ بإنشاء وكالة الغوث العام ١٩٤٩حتى العام ١٩٦٩ بقيت هيئة الأمم المتحدة تراوح في تحديد ماهية الجماعة البشرية التي تحمل اسم «الفلسطينيين». مرة تسميهم «اللاجئين في الشرق الأدنى» وأحيانا «اللاجئين» بدون تحديد هويتهم، وإذا حددتهم ستسميهم «لاجئين عرب». حق الجماعة خارج المكان كان موضع تساؤل: هل لهذه الجماعة حق تقرير المصير أم لا، وهل هذا حق قانوني أم مبدأ يمكن إغفاله؟!

بالنسبة للفلاح القدري أبو جمعة كانت الأمور محلولة، فما حدث سيحسب قدرا لا مفر منه، وإن هذا الضيم لن يدوم طويلا، وأنه لا بد من عائد بقوة ما قد تكون القدر نفسه. وبقواه المستلبة المبعثرة لم يكن يثق بإرادته الخاصة، بل يبتسم بسخرية مرة لمن يقول له «لن يحرر الأرض غير أبنائها»، فيرد «وبماذا نحارب: بالطناجر، أم بأعمدة الخيم، أم بسكاكين المطبخ!؟» مع ذلك كان مستعدا لأن يمنح ثقته لكل من يعده بإرجاع أرضه، ويمضي في هذا الرهان على حساب عرقه ودمه. وضع رهانه على الأمم المتحدة، على الجيوش العربية.. وقد روت زوجته كيف خدعوا ثانية أيام حزيران ١٩٦٧ حين كانوا يسمعون الإذاعات العربية التي قالت لهم «قادمون لكم غدا صباحا إن لم يكن اليوم!» على هذا الوعد استيقظت الذات التي انتظرت طويلا وحدتها مع المكان، فحمل الرجال بواريدهم المدفونة إلى الأحراش بانتظار الجيوش العربية. وأخرجت النساء القدور وأكياس الرز والدقيق إلى الشوارع. ولأيام بقيت الأدخنة تتلبد فوق المخيمات والقرى، واحترق الطعام مرات، ومرت ليال كثيرة، ولم تأت الجيوش العربية، بل جاء بدلا منها جنود إسرائيليون قلبوا القدور واقتادوا الباقين عقابا على يقظة الذاكرة بعد سنوات الترويض.

المنظمة والهوية

في الفترة التي دخلنا فيها المخيم كانت المقاومة الفلسطينية قد خرجت ظافرة من معركتين: الكرامة العام ١٩٦٩، وغور الصافي بداية العام ١٩٧٠. وخلال المعركة الثانية كنت في الأردن أتحرك بين قواعد الإسناد مع المقاتل خالد نزال على طول الغور. في هذه القواعد لبس الجميع عدتهم العسكرية، وحملوا الأسلحة الخفيفة وقاذفات الصواريخ يلوحون في المقرات والقواعد بانتظار سيارات الجيب التي ستنقلهم إلى ساحة المعركة. وكان مقاتل صبي يحاول إصلاح رشاشة «فيكرز» رأيت مثلها في أفلام رعاة البقر. وحين استعصت عليه وضاق به الزمن رفس الرشاشة الوحيدة برجله «ساعتك يا أخت المنيوكه!» الجيوش العربية التي هزمت في حزيران، والتي توطنت وأدمنت حالة لا حرب ولا سلام لم تسلم من هذا الهياج الذي أحدثته المقاومة؛ جنودها الذين كانوا يشكون في قرى المواجهة من هذا الذل شاركوا مع المقاومة بالمدفعية، وأحيانا خرجوا عن قرارات قياداتهم. وقد تركت هذه الانتصارات بصماتها على حياة المخيمات، فبدلا من الآباء اللاجئين المثقلين بتدبير خبز العائلة الكبيرة من شبابيك وكالة الغوث ومن العمل الثانوي في مدن اللجوء، بدأ الجيل الثاني يلعب دورا جديدا في حياة المخيم. قبل ذلك كان هذا الجيل قد عاش أيام النزوح الأولى في حالة من الذهول وغياب الوزن. حتى تلك الشجاعات الخارقة

التي واجه بها الآباء قوات الاحتلال بدت له بلا معنى ولا تستحق الذكر ما دام الأمر قد آل إلى واقع أثبت من كل الكلمات: أصبح لاجئا بلا وطن. صورة اللاجئ الراهنة أثبت من كل صور الماضي والقادم. الآخرون صنعوا له هذه الصورة وفرضوها على خياله، ففي لحظات الشجار والاغتياب اعتاد أن يسمع ذلك الاتهام: «لقد باعوا وطنهم». وكانت صور المقاومة الجزائرية توضع أمامه في مقارنة مهينة، ولم تكن قصص المقاومة البطولية للدفاع عن الأرض كافية لإثبات العكس... شرطة البلاد المضيفة اعتادت أن تحيل إليه كل الشرور الواقعة والمحتملة لأنه إنسان مقطوع. وبالنسبة للعقل القروي ترتبط القيم والضوابط الخلقية بوجود الإنسان في مكان محدد، حيث تتمركز العشيرة حاملة القيم. وترينا قصة غسان كنفاني «رجال تحت الشمس» المصير المأساوي لمجموعة من هذا الجيل ماتت داخل الخزان الحديدي دون أن يسمع الآخر صرخاتها أو يتفهم مأساتها، ولذلك، تحتم على هذه المجموعة أن تتقبل مصيرها بصمت، وتنتهي الرواية بإدانة النفس قبل الآخرين: لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟!

في هذا الجو المأساوي تبدو كل الأفكار والكلمات عاجزة عن تحريك هذا المخيم، حيث الشقاء العميق وقوة العادة والاستسلام. ولذلك، يبحث ابن الجيل الثاني عن قيم واختبارات خارج المخيم، ليكسب بشخصه ما فقده بالانتماء لعالم القيم المزعزعة، ويندفع نحو التعليم والدراسة، لذلك يكوّن التكنوقراط المتخصص بين الفلسطينيين نسبة يندر أن يوجد لها مثيل في العالم الثالث. والخيار الثاني هو المشاركة في الحركات السياسية العربية (الناصرية، البعث، الشيوعية) كنوع من التعويض عن فقدان الوطن. وفي كل هذه الحركات السياسية كان الفلسطيني منتميا إلى ماضيه أكثر مما للحركات الحاضرة، أو إلى فكرة تعطيه صفة أخرى غير صفة لاجئ، وكانت هزيمة حزيران قد أسقطت آخر أوهام الفلسطيني ورهانه على دور الجيوش العربية، ووضعته أمام مسؤوليته عن قضيته. في هذه الفترة، حققت الثورات المسلحة

في كوبا وفيتنام والجزائر إنجازات باهرة بإمكانيات لا تزيد كثيرا على إمكانياته الذاتية، إن لم تقل عنها. هذه التجارب تحز ضميره، وتدعوه بإلحاح لأن يتماثل مع التاريخ، ولذلك تطول فترات صمته وتصبح تصرفاته غير مفهومة من والديه اللذين قطعا من قوتهما ليعلماه. وقد يتردد التكنوقراطي العامل في أجهزة الدولة المضيفة، وربما ينتظر ريثما تنضج الأحداث. أما الشاب الذي أقفلت بوجهه فرص العمل والاندماج فيندفع بكل قهره نحو السلاح، وبنوع من الضراوة الفسيولوجية. في هذه الأيام، كنت في ضيافة قاعدة فدائية في قرية «حلتا» بجنوب لبنان، وكان آمر القاعدة يختار من بين مقاتليه مجموعة لتشارك في عملية لضرب مستوطنة الخالصة. لم أر وجوه المجموعة التي وقع الاختيار عليها فقد غابت وجوههم في ظلمة الوادي. كنت أسمع وشوشاتهم التي توحي بخطورة ما سيقدمون عليه، وانزلاقة الترباس البطيئة التي تُثبت الحبة في بيت النار، وصليل الحصى تحت أقدامهم وهم يناورون تلك الطاقة التي تريد أن تسبق الزمن والممكنات. تركتهم وذهبت مع آمر المجموعة لنهدئ شابا استثني من المشاركة. كان يبكي كطفل ويخبط على الجدار بقبضة يده ويزيح بغضب يد المسؤول الذي يحاول أن يمنيه بالزمن:

- ما الذي حصل؟ هذه ليست آخر عملية لنا! في المرة القادمة ستكون أنت مع الاستطلاع!

لكن الكلمات لم تهدئه، فبالنسبة له لم تكن عبارة «المقاومة الطويلة المدى» مفهومة بعد، لأن طاقته تختبر الآن في اللحظات التي تسبق الفعل، وهو عجول لأن يصحح فكرة الآخرين عنه وقد تحول من لاجئ إلى فدائي.

الوالد والابن

هنا يحدث في داخل العائلة انقسام حول مفهوم الرجولة وواجباتها؛ فالابن يحس بالعار وبالانتقاص من رجولته وهو يرى رفاقا حوله، بعمره، ولا يمتلكون صفات معنوية أو جسمانية تميزهم عنه، يتسربون من حوله نحو ذلك الكرنفال العجيب الذي يسمونه «الثورة». حماس الابن الشاب هذا يخيف الوالد، فيذكر الابن بالحركات التي أجهضت والمجازر التي تلتها، ويريه، بالمقارنة الساخرة، الفرق بين بندقيته العتيقة وطائرات الخصم ودباباته التي هزمت جيوشا عربية جبارة. ويذكر الوالد الابن بواجباته نحو والديه العجوزين الذين تعبا في تربيته، ونحو أخواته القاصرات وإخوته الصغار. وعادة يرد الابن بمنطق بسيط وصفه لي مقاتلون في قاعدة الكرامة نهاية العام ١٩٦٩:

- يكفي أن تذكره بما حل بنا من ذل وضياع نتيجة الانتظار والاعتماد على الآخرين. وبما أن العار الذي لحق بالوالد نتيجة تشرده لا يمكن تبريره، وأن العالم الجديد قد جعل الأمور تفلت منه، فلا بد من أن يتراجع اعتراضه ومنطقه إلى مجرد توصيات غير أكيدة بتجنب التهور والحفاظ على النفس، وحينها لن يبقى أمام الابن إلا بكاء الوالدة الذي لا يرد بالمنطق، ولذلك، يجد

نفسه مجبرا على إهمالها ليذهب دون تردد. ستكون هذه القطيعة أكثر حدة وحسما بين الآباء وأبناء الجيل الثالث الذين التحقوا دون أي جدال مع المقاومة، وشكلوا القاعدة الأوسع من المتدربين في المعسكرات والمقاتلين في القواعد. في واحد من مكاتب المقاومة كنت شاهدا على هذه القطيعة. فقد جاء الوالد إلى المكتب لإقناع المسؤولين بإعادة ابنه إلى البيت لأنه ما يزال غرا وصغيرا على هذا الاختيار، وأن مكانه الأفضل هو المدرسة والبيت. المسؤول تسلح بالحياد وهو يطلب من الوالد أن يقنع ولده بنفسه، والابن يرفض مواجهة الوالد لا خوفا منه، بل حرجا من رفاقه وهو يعامل أمامهم كطفل.. كان يدخن في غرفة أخرى بنهم وعصبية. وفي النهاية خرج، ولكن بعد أن سحب أقسام بندقيته مهددا الوالد بإطلاق النار إن هو لم يغادر المكتب على الفور.

يغيب الابن أياما طويلة عن البيت، ومعه يغيب أبناء كثيرون. إن نبيا جديدا قد مر على هذه المخيمات، هو الثورة، وجرد الآباء من أبنائهم. لذلك، لا يخجل الآباء إذا اجتمعوا من التعبير عن قلقهم ما دام الابن الواحد قد تحول إلى أبناء. وبين الآباء الذين يتجمعون في المقهى أو الديوان هناك إقرار ضمني بأن الأبناء اختاروا الطريق الصحيح. يغيب الابن أياما طويلة عن البيت فيعتاد على السكن في القاعدة والمعسكر، حيث كل شيء ملك مشاع للمجموعة، وفي حياة يومية على الحافة يكاد ينعدم فيها الإحساس بالملكية، و يتكون مثله في المنظمة أكثر مما في العائلة. ولذلك، يكون الفعل النضالي مجردا من المصلحة الشخصية. لا يسعى لاستعادة ملك مفقود، أو امتلاك شيء في وطن قد يستعاد وقد لا يستعاد خلال حياته. كان هذا الموضوع ذات يوم محور نقاش حام في قاعدة في «سحم الجولان»، فقد قرأ أحد المقاتلين رواية غسان كنفاني «عائد إلى حيفا»، وطرح على رفاقه سؤال الرواية المحوري:

- ما هو الوطن؟

وبدا السؤال مفاجئا ومحيرا أول الأمر:

- آه، صحيح.. ما هو الوطن؟

لجيل المقاتلين الذي لم ير الوطن أو خرج منه ملفوفا بحفاظات لم يكن الوطن مجرد أرض يقاتل من أجل العودة إليها، إنما قضية للنضال من أجلها. وربما هو، كما قال أحد المقاتلين، مكان للحرية، بعيد عن شرطة الدول المضيفة التي تحدد لك مكان وجودك وطريقة حياتك وتعبيرك، بل وكيفية تشييع الشهداء. ولذلك، قالوا أنهم لو لم يقاتلوا من أجل قضية فلسطين فربما قاتلوا من أجل قضية أخرى.

- حتى لو تحررت فلسطين، فلن أسارع للحصول على بيت أو أرض فيها، وربما لن أعيش في فلسطين... المهم أن تتحرر.

وكان دليل القاعدة فلاحا كهلا من جيل أبو جمعة لا يحب النقاشات متمسكا بحكمة تقول «عمر الحكي ما حرر شبر». لكن النقاش استفزه فخرج عن صمته شاتما «الجيل النغل»:

- هذا لأنكم لم تحرثوا ولم تزرعوا في فلسطين غير خراكم يا أولاد الحرام.

وقد كان محقا لأنه لا يستطيع أن يرى الوطن إلا مجسدا في صورة البيت والحقل. وذاكرته مزدحمة بالتفاصيل المحددة المسماة، وهو لن يتحدث عن وطن مجرد، إنما يحب تسمية المناطق والأراضي والسهول بأسمائها، ويخيل إليه وهو يسمي الأمكنة أنه يناديها ويتملكها. أما «الجيل النغل» فقد امتلك بدلا من الأرض القدرة على التجريد، ولا حاجة به لكل تلك التفاصيل لكي يتبنى القضية أو يفهم الكلمة المشتركة: الوطن. كل أغانيهم التي نسجت تحت فوهات البنادق تتجاوز تحديد المكان واسمه:

والله لانزل دورية

وأقطع من غرب المية

والله لاعيدك يا بلادي

من المية للمية

طالعلك يا عدوي طالع

من كل بيت وحارة وشارع

هذه الكلمات تتغنى بخط التحدي الذي يستدعي شجاعتهم: غرب المية، أو كل شارع أو كل حارة. ولذلك يفضلون كلمة الوطن على الأرض والنصر على العودة.

وقد حلت فعالية القتال عند المقاتل محل الحنين إلى البيت المفقود عند اللاجئ، ولن يستعيد ذاكرته إلا ليجيب عن أسئلة الحاضر السريع التحرك.

ذات يوم يأتي الابن المقاتل من القاعدة إلى البيت بسلاحه وبدلته القتالية، ويجلس وسط العائلة منبسط الأسارير ممتلئا بألفة البيت والحفاوة الرخية ونعومة الحياة هنا بالقياس إلى الجو السبارطي القاسي في القاعدة. يمازح الجميع، بما في ذلك الوالد، وينتقل مركز اهتمام العائلة ومثلها من الأب إلى الابن، وينتقل مركز عواطف البنت من الأب إلى الأخ ليصبح مثالها الأعلى مطابقا له.

لقد خلقت انتصارات المقاومة نوعا من الانقلاب في المزاج الجمعي الفلسطيني، فالصورة التقليدية للاجئ الذليل المنكسر القامة تراجعت أمام صورة حركة جديدة يمكن تلمسها في الاجتماعات الجماهيرية. وقد حضرت آنذاك ندوات جماهيرية للقادة الفلسطينيين، الذين كانوا آنذاك شبانا بسيطين من الجيل

الثاني، بلا حمايات مستنفرة ولا سيارات مدرعة ضد الرصاص. الناس يحضرون هذه الاجتماعات باهتمام مركز ووعي مستنفر، فتكتسب الأحاديث معاني متضمنة تضاف فيما بعد في تعليقات المقاهي وجلسات البيوت، وتمس الكلمات وجودهم المادي. وكانت الأسئلة من الوضوح والبساطة كتلك التي تسبق الأفعال الكبيرة:

– لماذا لا تساعدنا الحكومات العربية بالمال والسلاح؟

– ماذا سنفعل إذا أغلقت دول الجوار حدودها بوجوهنا؟

– لماذا لا تتوحدون، أو على الأقل توحدون قواتكم؟

– هل نحن بديل عن شعبنا في الداخل؟

وعلى الرغم من تعدد الجبهات وكثرة الانشقاقات، فإنّ تيارين كانا يحكمان الساحة: تيار يريد إشاعة وعي أيديولوجي في القواعد والمخيمات (هو في الغالب وعي ماركسي أو اشتراكي يتخذ من الثورة الفيتنامية نموذجا، وتنظيميا يتجه نحو إقامة حزب داخل جبهة مقاتلة)، والاتجاه الثاني يقتدي الثورة الجزائرية مقدما حركة التحرر المفتوحة، وأحيانا يعتبر الفكر ترفا ثانويا سيأتي دوره بعد التحرير. الصراع بين التيارين، وحتى داخل التيار الواحد، كان مطروحا في المخيمات. مع هذا الصراع، وحتى بدونه، كان هناك شعور بتغير ما في وجود ناس المخيم مع اقتراب الأمل: «أم العبد من مخيم الوحدات، عمرها ٤٩ عاما وهي أم لثلاث بنات وولدين: بعد معركة الكرامة حسينا إنو الأمل اقترب، في الأول كنت بفكّر، لا أنا ولا ولادي، ويمكن حتى ولاد ولادي يشوفوا فلسطين. صارت الصورة قدام عيني. صار ببالي إني ارجع لبيتنا بعين طورة أفلح وأرعى البقر». حتى أحلامها تغيرت: «مرة حلمت إني أنا وأبو ولادي وسلفتي نقلع سمسم ونعشب ونّظف الأرض. بعدين إجه جوزي صحاني من النوم بدو ياكل، قلت يا ريت ما صحيت من الحلم أبدا».

هذا التغير شمل الجميع، فقد كانوا سابقا أشبه بحطام مأساة منسية ملقى في ضواحي المدن المضيفة، بينما أصبح وجودهم الجديد الآن باعثا لاهتمام الآخرين، ومثيرا لجوٍّ من الخطر يترافق مع اليقين بأن لهذا الوجود معنى. في تلك الفترة كانت ذكريات الانتفاضات الشعبية تستعاد حية نابضة، كما لو أن تأريخا جديدا ينهض من تحت أسمال اللاجئ، تكون فيه كل بطولة هي بطولة لا أحد، وبطولة الجميع في الوقت نفسه.

امرأة المخيم

وحتى الآن ما زالت المرأة، وبالتحديد البنت الشابة، تبحث عن موقع لها في هذه التنظيمات التي زرعت في المخيم حول بيت العائلة. التربية الثابتة التي تعد البنت لمستقبل واحد: الزواج والبيت ورعاية الأطفال بدأت تجد ما يزاحمها. كانت هذه الصورة قد تزعزعت قبل ذلك في المخيم، حين أعلن الوالد منكس الرأس عجزه عن توفير القوت للعائلة المجتمعة في الخيمة. وأمام انكسار الأب سترفع البنت صوتها لأول مرة معلنة قدرتها على العمل في الورش الصغيرة التي تعتمد على العمل اليدوي: مشاغل الخياطة، ومصانع السجاير، والتعبئة، في حين تجد المتعلمات منهن عملا في التعليم والطبابة. مساهمتها في دخل البيت ستعطيها موقعا أفضل في صياغة مصير العائلة ومصيرها بالذات، وستنفذ من ثغرة التناقض في موقف الوالد. س. ن. في الثانية والعشرين من مخيم «خان الشيح» في سوريا، واجهت رفض والدها: «سألت بيّي: كيف تقبل أروح اشتغل في المعمل وفيه رجال كثير مش أحسن من اللي في التنظيمات ويمكن ما بنعرفهمش، وما تقبل اشتغل في العمل الوطني؟ لأن المعمل فيه فلوس وهون ما فيه؟!» وكان جواب الوالد مربكا، «هذي حال وهذي حال».

مع بروز التنظيمات كمواز للعائلة بدأت هذه البنت تتحرك في حدود إمكاناتها،

وبشكل غير منظم. مرة ذهبت للتبرع بالدم وشاركت في حملة كنزة المقاتل، ولكنها لم تستطع المضي الى أبعد من ذلك، فحتى الآن بقيت الثورة ثورة رجال، وكلمة «فدائي» تعني الرجل وحده. وما هذه النخبة من لابسات الجينز اللواتي بدأن يظهرن في المخيم إلا «قليلات أدب متباهيات أو مسترجلات» لأن الفعل البطولي مازال محجوزا للرجال. ستتحرك البنت عندما تبرز بطولات نسائية مثل شادية أبو غزالة وفاطمة برناوي، وتعطي صورة أخرى للشرف لا تزال غامضة بالنسبة للوالد الذي يعتصم في حضور بناته بالصمت أمام أمثلة كهذه . المثال الأكثر تأثيرا هو الشهيدات، لأنهن يجمعن الفضيلتين المؤثرتين على وجدان الرجال: البطولة التي كانت سابقا محجوزة للرجال وحدهم، والعصمة الخلقية للشهداء ذات الجذر الديني. ومع ذلك لا يريد الوالد أن يتصور ابنته واحدة منهن. وحتى لو تزحزحت قناعاته سيفضل تأجيل القبول إلى النهاية ليكون الأخير بين أقاربه وجيرانه. وتحاول البنت أن تنفذ من تفاوت المواقف داخل العائلة لتجد سندا. تقف الأم حائرة رغم تعاطفها الصامت، وتحيل الأمر للرجال أصحاب الرأي والقرار. أسأل الأم في المخيم:

- حين يحتدم النقاش مع من تقفين؟

- مع الصح.

- ما هو الصح؟

- أن يتفقوا.

- وإذا لم يتفقوا؟

- مع الأكثر، مش هيك الديمقراطية ولا؟

تتجه البنت إلى الأخ المسيس والمنغمر في التنظيم، لكن تحفظ الأب سيشمل،

أيضا، الابن المقاتل الذي التقى في المكاتب رفيقات يرتدين الجينز واستطاب الحديث معهن، ولكنه لا يريد أن تكون هذه الفتاة الطليقة أخته أو زوجته. وحين تسأله الأخت أن يكون إلى جانبها لإقناع الوالد سيكون رده: «مجتمعنا لم ينضج بعد لأمر كهذا». وحتى الآن حاولت البنت أن تدخل التنظيم دون أن تفقد العائلة ذات التقاليد المعنوية المتينة. ولكن حين يتعذر الأمر ستلجأ إلى حيلتها الخاصة، وإلى الكذب أحيانا، من أجل هذه المشاركة سرا لكي تمنح وجودها المعنى. رغبة المرأة في المشاركة وعوائق العائلة كانت موضوع حوار بيني وبين ربات بيوت، عاملات، وموظفات، وطالبات في مخيمات عدة. بعضهن منتميات لتنظيمات، وبعضهن مكتفيات بالمشاركات العامة. تحدثن أحيانا بانفعال غاضب، وأحيانا بلهجة شاكية مستسلمة:

– من منكن منتمية؟

– نحنا الثلاثة (عاملتان وممرضة)، نعمل في التنظيم على هوى ظروفنا، لكن عملنا من الساعة ٧ صباحا إلى ٣ بعد الظهر يستغرق كل وقتنا، وكمان بنعمل بالسر لأن تقاليد العائلة تمنعنا.

– من الذي يمنع؟

– الأب.

– مش الأب لحالو، الأكثر الشباب المتعلمين اللي يحسبوا حالهم مثقفين. يسمعوا الحكي من الشارع والتنظيمات قبل ما يسمعه الأب. يسمحوا لصديقاتهم يعملوا في التنظيم، أما أخواتهم وزوجاتهم لا...

– وما سبب المنع؟

– بدهم نتصرف مثل ما بحبّوا. بيشوفوا اللي يحصل للأحزاب والتنظيمات ويخافوا ننحبس ويصير حكي علينا.

– بيقولوا الاختلاط مع الشباب عيب. اخوي «منتمي» يقول ما وصلناش لهالمرحلة. ابوي متعاطف مع التنظيمات لكن مش منتمي، بفكر ليش يسمح لبنتوا بشي ما عملو هوه؟

– الحجة دائما ما بدنا زايد أو ناقص من حكي الناس، خلينا هيك مستورين أحسن.

– ماذا يقول الناس مثلا؟

– قصص حصلت، واحدة أو ثنتين صارت حجة. يعني فيه ناس بتحكي. مجرد اتفاق في الرأي بين بنت ورفيقها الناس تتصور إنو في شي.

– أنا مثلا كنت في السابق أعمل في التنظيم النسائي في منظمة (بلاش الاسم). العمل بدو لقاءات واجتماعات وروحه للمكتب. أخي بنفس التنظيم ما رضيش أروح وأعمل، قال ممكن تشاركي في مسيرة تشارك فيها كل الناس، أما أن تنتظمي فلا. وأبي مش ضد التنظيم، بالعكس يساعد الكل، لكن رفض نعمل في أي تنظيم. مرة سمح لي، بدون قناعة، أن أعمل وبعدين صار يتحجج: ليش تروحي مرتين بالأسبوع، وبعدين صار يسأل: كل أسبوع اجتماع؟!

– أنا مثلا (أم وربة بيت) شاركت بمسيرة يوم الأرض، لما رجعت صاروا الرجال يتمسخروا «إنتي الختيارة كمان؟!»

– هل يؤثر هذا المنع على موقفكن؟

– أحيانا أيه وأحيانا لا.

– يؤثر.

– كيف؟

– أنا مثلا كنت منتظمة، لكن ما فييّ روح للاجتماع يوم وأغيب عشرة، وما فييّ كل مرة أحكي للتنظيم إنو بيي وخيي منعوني. شفت نفسي مش قادرة أوفي واجبي، قمت تركت.

– حتى لو الوحدة أصرت وتحررت شويه، يصير الضغط على البنات الأصغر.

لكن هذه المشاركة ستتفاوت حسب مد الثورة وجزرها. ففي سنوات صعود الحركة بعد هزيمة حزيران نشأت نخبة نشطة من المناضلات المسيسات تركز عملهن السياسي والاجتماعي في المخيمات: التثقيف السياسي العام حول دور المرأة، وإيجاد مجالات عمل وطني للنساء مثل دورات الطبابة، وكنزة المقاتل، والمشاركة في الاجتماعات العامة. لم يخل التحدي الريادي من التطرفات، لكن هذه النخبة حققت الخرق الأول لاحتكار الرجال للعمل في الثورة. وعلى الرغم من الإعجاب بجهادية وصبر الرائدات، فإنهنّ لم يستطعن قلب الصورة العامة للثورة، كونها ثورة رجال، خاصة في المجال الأكثر تأثيرا وهو القتال. السقف الأعلى المسموح لهن هو مظاهرة يشارك فيها الجميع مثل تشييع قائد فلسطيني. وقد حدثتني أم وابنتها من «خان الشيح» في سوريا بأن للأب والأخ الكبير رداً دائماً عند عودتنا من المظاهرات العامة: «يعني حررتوا فلسطين بزغاريدكن؟!»

الكوارث التي واجهها المخيم (مجازر أيلول في الأردن العام ١٩٧١، والحرب الأهلية في لبنان من العام ١٩٧٥، وحصار ومجزرة تل الزعتر من ١٩٧٥–١٩٧٦، ومجازر صبرا وشاتيلا العام ١٩٨٢) حلت هذه الإشكالية جزئيا. لم تستهدف هذه المجازر الوجود السياسي الفلسطيني المتمثل في المنظمات وقياداتها فقط، إنما القاعدة البشرية لهذا البناء السياسي وهو المخيم الملتحم بها معنويا ومكانيا. ولم تحدث المعركة في مكان آخر يذهب الرجال إليه وتبقى النساء في المخيمات، إنما تأتي الحرب إلى المخيم وتصبح العائلة الفلسطينية، بنسائها وشيوخها وأطفالها، مستهدفة بالقصف والإبادة، حتى وهي في بيتها.

وحين يكون الخطر جماعيا ومسألة موت أو حياة، وحين يصبح مجرد الحصول على الماء أو رغيف الخبز، بل وحتى الوجود بحد ذاته، بطولة، ستزول الفوارق الثابتة بين بطولات الرجال وبطولات النساء، فتتراجع اعتراضات الوالد والأخ على مشاركة المرأة كمقاتلة في المليشيا أو ممرضة في الميدان. وقد كانت سلسلة المجازر هذه العلامات الأبرز في التاريخ الفلسطيني.

المجزرة: تل الزعتر

من تل الزعتر بدأت الحرب ومعها سلسة المجازر المتلاحقة. قبل المجزرة كنت قد عرفت هذا المخيم العام ١٩٧١برفقة نقابي عراقي محترف إضرابات يقيم في المخيم. مررنا بالأحياء المارونية الباذخة شرقي شمال بيروت. وبعد حرج ثابت وتلة المير فرشت تحتنا في السفح الجبلي المؤدي إلى المصانع خسفة إلى قاع الفقر تبلغ مساحتها ٢٩٥ دونما، وتضم ٢٢ ألفا هم سكان المخيم. خليط لا مثيل له من مهجري الجنوب اللبناني واللاجئين الفلسطينيين الذين عاشوا في المخيم هجرتهم الثالثة. معا عاشوا الاستلاب مضاعفا؛ استلاب الأرض من عدو واحد، واستلاب العمل هنا دون أية ضمانات ولا حقوق نقابية. في واحد من بيوت المخيم كان صديقي على موعد مع مجموعة عمال ليعرض لهم لائحة مطالب نقابية كان منهمكا في إعدادها طوال الأيام السابقة. منذ الصباح الباكر بدأت فوضى الأصوات تدخل أحلامي أنا النائم متكورا على حصيرة. مزاليج البيوت بدأت تنفتح تباعا، ويغادر الناس بيوتهم مختنقين من زحمة الأجساد وضيق المساحة (كل ٨ أشخاص في غرفة أو غرفتين ضيقتين) دون ماء وكهرباء. ويتدفق في الأزقة الموحلة ذلك السيل من العمال الذين سيحركون الصمت بدويّ ورش ومعامل النجارة والحدادة والخياطة المحيطة بالمخيم والتي تضم ٢٩٪ من معامل لبنان و٢٢٪ من عماله. مع الرجال سيل

من الأطفال (٣٧٪ من سكان المخيم أطفال تتراوح أعمارهم بين ٦-١٤ عاما). أطفال يزحفون في الأزقة القذرة قرب مجاري الماء، وصبيان يغادرون طفولتهم قبل أن ينبت الزغب فوق شفاههم، تاركين الدراسة، إلى عبودية العمل المنهك.

كل شيء مؤقت وطارئ: مكان الوجود هنا حيث كل مهاجر يعيش هنا وذكرياته وأمله هناك في الأرض التي غادرها، ذل الحياة في القاع الأدنى يتجرع الناس مرارته على وعد غامض بأن هذا الزمن النذل طارئ، جدران البيوت بنيت من مواد طارئة، دون أساسات ثابتة، من الصفيح والتخاشيب. حتى العمل هنا مؤقت لا يربط الناس بالحرفة أو المكان. كأن الجميع جاءوا ليجمعوا شيئا من المال لتشييد حلم في مكان آخر. الملابس المنشورة على الحبال وأقنان الدجاج والأطفال وأسواق الخضرة ورائحة الطبيخ وعربات الباعة لم تزل هاجسي المتشائم بأن هذا الحشد الإنساني وجد في المكان الخطأ.

من هذا المخيم بدأت الحرب الأهلية في لبنان بمجزرة عين الرمانة يوم ١٣ نيسان ١٩٧٥. كنا في طريقنا إلى الجنوب حين انقطع بث الراديو بين إعلان عن مسحوق الغسيل المفضل لدى النساء العصريات وسيكارة مارلبورو ذات النكهة البرية ليذاع الخبر. غابت السهول الخضر تحت «الغتيت» والقمم المعممة بالسحاب عن بصيرتنا، وحلّ ذلك الشيء الفظيع الغامض الذي يترك مرارة في الفم دون أية صورة أو اسم. توقفنا في الطريق عند قاعدة لـ«فتح» وخرج لنا رجل أشيب أجعد الشعر عرفت لاحقا اسمه: أبو خالد العملة. تربع على الأرض وقال وهو يزيح نظره عنا «اليوم بدأت الحرب. سجلوا هذا التاريخ جيدا!» وأخذ يخط على الأرض مسيرة الحافلة حافرا بالحجر موقع المجزرة. لم يكن الحدث بهذا التجريد، فالنهار الواضح البسيط لا يشكل ديكورا مناسبا لمجزرة، بل إن سوية الأشياء ووضوحها أعطت للسائق وهو يرود الطريق الذي قطعه مرات ومرات غيبوبة العادة. فالطريق كما هو، يأخذ الحافلة والأسهم تشير لانعطافاته، الأشجار على جانبيه ساكنة، ولم يرفع

السائرون في الطريق رؤوسهم لإلقاء النظرة الأخيرة إلى الشاحنة ليروا غفلة السائرين نحو المجزرة. سوية الأشياء خدرت القتلى داخل الحافلة. فالشيوخ داخوا من دوي السيارة وذهاب الأمكنة، والأمهات قلقات على مغادرة المكان يعللن النفس بفرحة رؤية الأقارب، بينما نفر الأطفال من أذرع أمهاتهم إلى النوافذ التي تريهم واجهات حوانيت فيها لعب بحجم البني آدم، وديكة حقيقية من الحلوى وحدائق فيها مراجيح معلقة في السماء تهزها فراشات تقول لهم: تعال تعال...! ما من أحد تنبه للحاجز القادم. فالسياسة وقراراتها جرت خلسة في غرف السياسيين، وما من أحد من الركاب يدري أنه اختير لتسجيل بداية تاريخ الدم في لبنان: ملثمون بلا ملامح ولا أسماء أوقفوا الحافلة وأطلقوا النار من الرشاشات على الركاب الذين قتلوا جميعا قبل أن يخرجوا من الدهشة إلى السؤال. كأني رأيت المشهد كاملا في اللازمان واللامكان كما في لوحة «مجازر في كوريا» التي رسمها بيكاسو من وحي غويا. المكان غريب، فمن السهل العاري الذي ستحدث فيه المذبحة يصعد طريق ملتو إلى لا مكان، والوقت نهاية النهار أو بدايته. كل شيء سوي وواضح عدا القتلة والمقتولين. لا يمت القتلة لزماننا ولا مكاننا، بل يمتون لأسلحتهم الجاهزة للقتل. أغرب منهم الناس الذين سيقتلون عما قليل: لم يكونوا عزّلا فقط، إنما عراة. نساء حوامل يتطلعن للقتلة بدهشة ساكنة: ما اللعبة وبماذا يلعبون، ولماذا هم هكذا؟ وثمة طفل عند أقدام أمه يلعب بالتراب غير آبه بالقتلة والقتلى، وطفل آخر خبأ وجهه في ظهر أمه لا يريد أن يرى. لا أحد يريد أن يهرب كأن الموت قدر هين: بضع رصاصات (تـ..تـ..تـ..) وتنتهي اللعبة.

مجزرة عين الرمانة شدتني لتلك الخارطة المشؤومة التي رسمت على الأرض، ولذاك المثلث بالتحديد: النبعة، وجسر الباشا، وتل الزعتر. إنه النتوء المعيق في خارطة التقسيم، لأنه يعيق سيطرتهم على المتن الشمالي، ويقطع خط الاتصال بين مواقعهم الحصينة في شرقي بيروت، وبين ساحل البحر شمالها.

سقط جسر الباشا.. سقطت النبعة.

وبذلك أغلقت الطرق إلى تل الزعتر. وفي أيلول ١٩٧٥ أطبق الحصار، لكن العقل السياسي البارد أجل المجزرة بانتظار اللحظة المناسبة.

ذهبت أتتبع الحدث بعد وقوعه، كأنني وقد تأكدت من سلامتي أردت أن أكون هناك. وكان الجواب الدائم حيثما سألت: شو بنحكيلك؟ هذا الجواب سمعته من متابعين على بعد مئات الأميال، ومن مقاتلين حاولوا خلق الحماية النارية من مواقع قريبة في حرب الجبل لتخفيف وطأة الكابوس عن المخيم المحاصر، وسمعته من الناس الذين عاشوا الحدث حتى ثمالته المرة. المسافة إذن بين الحدث والكلمات التي وقفت مرتجفة على مفارق الطرق المؤدية إليه. ومع ذلك، ذهبت أتتبع حكاية مؤلمة فاتتني فصولها. حين هدأت الجراح، وبدأ الناجون يناورون ذكرياتهم بحيل الحياة الحاضرة ناشدين النسيان، ذهبت لأحفر ذاكرتهم، حفرا موجعا، وأعلل نفسي بالوصية الأخيرة التي أرسلها المحاصرون عبر جهاز الإرسال: «كل الطرق إلينا مغلقة، نحن سنموت وراء متاريسنا، فقولوا لكل الناس ليعرفوا ما حدث هنا!» ذهبت من الإقرار بأني وصلت متأخرا، حين لم تعد لنقالة الإسعاف وكيس الطحين وجردل الماء فائدة، بعد أن ذهبت الحياة نفسها، ولكني أردت أن أستشف مما حدث تحذيرا من الآتي:

محمد حامد (مقاتل عمره ١٩ عاما): قبل سقوط جسر الباشا شاركت في العمليات الهجومية على المناطق المحيطة بالمخيم. كنا نخرج لهم بمجموعات صغيرة، بيننا فتيات وصبية من المليشيا ونقتحم مواقعهم بالرشاشات. ولأن مضادات الدروع قليلة فقد جرت عمليات التسديد بالـ آر. بي. جي. من مسافات لا تزيد على ١٠٠ متر من آلياتهم ومواقعهم الحصينة في بيت مري، وعين سعادة، والمنصورية، وطريق الفنار، ومنطقة الفيلات.

محمد شحاده (مقاتل): بعد عشرين يوما من الهجوم على أهلنا، تحركت على

رأس دورية إلى المخيم، نحمل معنا قليلا من المساعدات والعتاد والأدوية. ذهبنا عن طريق المونتفردي واستغرقت رحلة الوصول ثلاثة أيام وثلاث ليال. اصطدمنا بكمائن معادية وتجاوزنا بعضها، حتى وصلنا إلى المخيم. لا يمكن وصف الفرح بوصولنا.

فوجئنا بالخراب وروائح الجثث وشحوب الناس وكثرة الجرحى. وحال وصولنا بدأ هجوم بالدبابات والملالات من القلعة، فشاركنا في القتال على الرغم من إجهاد رحلة الوصول.

أبو نضال (قائد الإسناد): عندما احتلت الكتائب تلة المير، وهي أعلى تلة تشرف على المخيم ورفعوا علمهم عليها، قصفنا التلة قصفا مركزا وأرسلنا مجموعة اقتحمتها. وكانت خطتنا مرتبة على أساس حظائر مشاة متقاربة وبخطوط متوازية، وقد رفعنا علمنا فوقها، فارتفعت الزغاريد وصرخات الفرح من داخل الملاجئ. ولكن بعد ثلاثة أيام احتلوا التلة مرة أخرى فهاج أهالي المخيم بكاملهم. الشيوخ والنساء كانوا يصرخون، حاملين السكاكين والعصي يريدون استعادة الموقع، حتى ولو بأظافرهم.

رسمية إبراهيم (ممرضة ومليشيا): لن أنسى منظر الجرحى، وبينهم ذوو الإصابات الخطيرة الذين لم يتوقف نزفهم. كانوا يجرون أذرعهم المجروحة وقناني الدم بيد، وباليد الأخرى رشاشاتهم. جروا أنفسهم إلى النوافذ ليقاتلوا وهم على أسرتهم وغالبا ما كانت هذه الحركات تكلفهم حياتهم.

أمينة العراقي (ممرضة): في مستشفى الهلال الأحمر كنا نداوم دوريات. في كل لحظة ينفتح الباب ويدخل جرحى جدد؛ إصاباتهم في أيديهم، في صدورهم، في وجوههم. يأتون محمولين في نقالات، على أكتاف رفاقهم، ومرات يأتون وحدهم ماشين أو زاحفين. قبل أن نفرغ من تضميد أحدهم يدخل الثاني حتى أننا لم نعد نرفع رؤوسنا عندما يفتح الباب. لم تكن الأدوية متوفرة. في الأيام

الأخيرة أخذنا نستعمل الماء والملح فقط، ثم شح الماء نفسه. كان الجرحى يحتضرون، ونعرف انهم سيموتون عما قريب. بعضهم جراحه بسيطة، تحتاج لمعالجة بسيطة في ظرف عادية، ومع ذلك يموتون من نزيف في اليد أو تسمم في الجرح. مرة تصاوبت أنا وشاب بقذيفة واحدة. الشاب بدأ ينزف، ولما كانت المطهرات غير موجودة، فقد مات خلال ساعة. وعندما يكون القصف شديدا لا نستطيع جلب الماء، فلا نغير في ذلك اليوم لأي جريح، ولا نستطيع طبخ الطعام لهم. وعندما نعجز عن تلبية طلبهم، يموتون خلال ربع ساعة. في ليلة واحدة داومت فيها في الهلال الأحمر استشهد ٢٥ من الجرحى بينهم جريح كانت إصابته خفيفة. طوال الوقت كان يحاول أن يسلينا بالنكت. لا هو ولا نحنا نصدق انه سيموت. في لحظاته الأخيرة كان يصرخ: «منشان الله ولو قطرة مي!» منظرهم يقطع القلب، خاصة عندما يكونون معارف. قسم منهم شبان صغار جميلون وحيويون، ثم يشحب لونهم أكثر فأكثر. في النهاية يصرخون متوسلين أن نعطيهم حبوبا مهدئة، أو نقتلهم. وعندما نطلب منهم أن يسكتوا يعضون المخدة أو قفا يدهم حتى يموتون بصمت.

عبد العزيز اللبدي (طبيب المخيم): خلال الأشهر الستة سقط أكثر من خمسة آلاف قتيل وجريح، جلهم من النساء والأطفال، سقطوا خلال الشهرين الأخيرين وهم في طريقهم إلى مورد الماء غير عابئين بالرشاشات والقذائف التي تنتظرهم عند مصدر الماء الوحيد. عندما اشتد الحصار والقصف صارت كل رابع قذيفة تسقط على المستشفى بالذات. أخلينا المستشفى ووزعنا الجرحى على ٣٠ مركزا أكثر أمنا على حياتهم، ولحمايتهم من تفشي الأمراض المعدية مع حالات الغرغرينا والجفاف.

يوسف العراقي (طبيب المخيم): أخذنا نجري العمليات على ضوء الشموع، في حين تحتاج العمليات لضوء ساطع لتمييز خلايا الجسم. هناك حالات لا تعالج إلا ببتر العضو المصاب، ولكننا عالجنا هذه الحالات دون بتر. وقد

رفض البعض بتر سيقانهم واستشهدوا مسممين. عانينا كثيرا من أزمة الدم، فلم يكن لدينا خزان خاص لحفظه. كثيرون كانوا يتبرعون بدمهم من بينهم صغار لا يسمح وضعهم الصحي بسحب دمهم. وكانت معنا ممرضتان صغيرتان تتبرعان من دمهما لجرحى عديدين حتى سقطت واحدة منهن من الوهن. أعلنا لسكان المخيم نفاد الدم من باب التحذير لتجنب الإصابات. المشكلة الأخرى هي دفن الموتى. في البداية كان هناك اعتقاد بأن المعركة لن تدوم طويلا، ولا بد من مخرج، لذلك أجل الناس دفن موتاهم، واكتفوا بكتابة الأسماء على النعوش، وجمعت التوابيت في مكان مكشوف. لم يسلم الموتى من القصف، فسقطت عليهم قذيفة وبعثرت جثث القتلى وتوابيتهم، لذلك بدأ الناس يدفنون قتلاهم في أماكن استشهادهم، فتحول المخيم إلى مقبرة.

قذائف كالزمن

عبد المحسن (قائد تنظيمي): في بداية المعركة كان القصف يجري من بعيد، وكانت بيوت المخيم وأزقته تشكل حواجز بسيطة، ولكن بعد اقتراب الانعزاليين وسيطرتهم على تلة المير أصبح القصف مباشرا، واتخذ طابع التمشيط لجعل المخيم مكشوفا تماما. وقد تعرض المخيم خلال الشهرين الأخيرين لقصف مركز شاركت فيه المدفعية والدبابات. منازل المخيم المبنية من اللبن والزينكو تلقت خلال هذه الفترة خمسة وخمسين ألف قذيفة من مختلف العيارات، وواجه المخيم ٧٣ هجوما عسكريا خلال الـ٥٣ يوما الأخيرة.

نزهة العوض (ربة بيت): في الملجأ كنا أنا وصديقتي نمسك ساعاتنا ونعد القذائف: ١٦ قذيفة كل دقيقة، وطبعا يضيع عنا اختلاط القذائف. كل قذيفة تدخل الرأس وتقطع الأنفاس والمصارين. وفي لحظات الهدوء النادرة بين القذيفة والقذيفة تسمع صرخات الجرحى في البيوت المجاورة أو الذين أصابتهم الشظايا على جانبك. أحيانا يندك الناس تحت السقوف دون أن يسمع أحد صراخهم.

رسمية إبراهيم: تهدمت كل بيوت المخيم، ولم يعد هناك جدار واقف يحمي حركة الأحياء، لذلك تزاحم الناس في الملاجئ القليلة مثل السردين. التنفس

صار صعبا من زحمة الأنفاس ووخمة الروائح ودخان القنابل والتراب الذي ينهال من السقوف، دون ماء ولا طعام. كان البعض يموتون دون أن يدري بهم أحد من شدة العتمة وكثرة صراخ الأطفال. يضيق الناس بالملجأ الخانق فيخرجون إلى العراء وهم يعلمون أنهم سيموتون من القصف والقنص.

نزهة العوض: تصور ما سيحصل للأطفال بعد سبعين يوما في الملاجئ بلا طعام ولا ماء وبعد أن جف حليب الأمهات. من كل ١٠٠ طفل بقي عشرة أحياء والباقي أكلتهم الدمامل والحمى والجفاف. كنا نتطلع للأطفال في أيدينا دون أن نعرف، ولا نريد أن نعرف، إذا كانوا أحياءاً أو أمواتاً. تحت ضغط القصف ولدت بجانبي امرأة، لكنها ماتت ومات الطفلان بعدها من الجوع.

عوض درويش (كاسب عجوز): على الرغم من الصواريخ والقذائف كنا نخرج من بين الأنقاض لنجمع الحطب أو الخبز، وفي الليل نجلب الماء. حتى الأطفال ما عادوا يخافون، ابني الصغير كان يحضر القذائف التي لم تنفجر إلى الملجأ، وعندما تصرخ النساء فزعا يطمئنهن: سنصلحها ونعيدها إليهم.

المـــاء والـــدم

أدهم (أحد قادة تل الزعتر): في الفترة الأخيرة من المعركة تركز القصف على مصادر المياه. قطعت الأسلاك فتوقفت الساحبات بعد أن نسفت مواسير المياه تحت الأرض. وكلما تقدم الانعزاليون واقتربوا من المخيم أصبح الحصول على الماء أصعب، حتى سيطروا على كل مصادر المياه، ولم يبق سوى أنبوب واحد لكل سكان المخيم الذين قارب عددهم الثلاثين ألفا. حتى هذا المصدر أصبح مكشوفا أمام النيران المباشرة.

الدكتور يوسف العراقي: كنت أرى بعيني طابورا طويلا من النساء والأطفال يتحرك ببطء أمام أنبوب الماء الوحيد. تسقط القنابل مباشرة عليه ويحصد القنص الواقفين بمعدل ٣٠ إصابة في اليوم، ومع ذلك يستمر الطابور ببطء وإصرار. تسقط الأم فتحمل البنت القسطل. تصاب البنت، ومع ذلك تحمل يدها المصابة وجردل الماء إلى الملجأ.

عبد المحسن: عندما اشتد الحصار، اختفت الخضار والحليب، بعدها معلبات اللحوم ثم التمر. أصبح الطعام هاجسا كالقتال. في الأيام الأخيرة هاجمت النساء مستودع غزة، وكانت فيه كميات من العدس. أصبح العدس الغذاء الوحيد. الفطور عدس، الغداء عدس، العشاء عدس. تفننت النساء بالعدس.

يصنعن منه شوربة ومرق، يحمصنه ليصنعن خبزا، يسلقنه ليسقين الرضع ماءه بدل الحليب.

ربة بيت جريحة في مستشفى الهلال الأحمر: الطفل يريد حليبا. جف الحليب تماما. أذهب للمنظمات، واحدة واحدة. الجواب واحد: ما عندنا طعام. أجري في الشوارع «مين يا الله يعطيني خبز لأطعم الأطفال». كنت أذهب وحدي، تحت النار، أملأ أربع خمس حلل ماء. أسقي الطفل ماء وأطعمه نصف رغيف خبز. شهران وأولادي بلا ترويقة ولا سكر ولا طعام. كان عندي رضيع صرت أرضعه ماء بلا سكر. من الجوع غادرنا الملجأ. من لم يسقط بالقنص والقذائف يسقط من الجوع والعطش وإحنا نقول صامدين لآخر نفس.

عبد المحسن: الملجأ الأساسي في المخيم يقع تحت عمارة قائمة على أعمدة عدة. في لحظة انهياره كان فيه أكثر من ٤٠٠ شخص، معظمهم أطفال ونساء وشيوخ. تركز القصف المعادي على هذه البناية بالتحديد، حتى انهارت فوق الملجأ.

عايدة محمد (طفله سورية عمرها عشر سنوات): بعد أن دفنا أمي، بقيت وحدي خائفة دون أن أبكي، لأني أصبحت المسؤولة عن أخوتي الأربعة. جاءنا مسؤول من فتح وأخذنا إلى الملجأ. خفت، فقد بدأ الناس في الظلمة مثل أشباح تصرخ، مع ذلك نزلنا فلم نجد مكانا من الزحمة. تزحزح الناس نتفة نتفة حتى وسعوا لنا مكانا في الزاوية. القصف شغال على رؤوسنا، ومع ذلك لم أستطع أن أبكي لأني أنا المسؤولة عن أخوتي. كنت أخرج مع الكبار لأجلب لهم الماء تحت القصف. حين انهارت البناية فوق الملجأ سقطت داخله سيارات وآليات كانت رابضة فوقه، حشرت جسمي من كسرة فيه وخرجت، ثم عدت مع الناس الذين عادوا من طابور الماء. أخذنا نصرخ كلنا لأن لكل واحد أبناء أو أخوة بقوا تحت.

أمينة العراقي: كنت أداوي أحد الجرحى حين بلغني نبأ سقوط الملجأ. هرعنا إلى هناك فوجدنا أناسا هرعوا قبلنا يحاولون رفع الجدران بأيديهم وهم يصرخون لأن لهم أولاد وإخوة وأمهات هناك. يحشر البعض رؤوسهم تحت الجدران ليتسمعوا ويقولون: هناك أحياء يصرخون! نجمع أيدينا رغم القصف: نحاول مرة ثانية... الكتائب نصبوا هاونات ورشاشات ٥٠٠ من محاور عدة وأخذوا يضربون محيط الملجأ، ومع ذلك استمرت المحاولات. حاولنا إدخال خرطوم ماء ليشرب منه المحشورون تحت، لكننا لم نستطع إيصاله. أدركنا عجزنا لكننا لم نكف، لأن أهلنا هناك يستنجدون بنا وسيموتون بعد قليل.

نادية أحمد (درزية من الشوف): عوائل بكاملها دفنت هناك حية: أهل آمال كلهم، واحد ماتت أمه وزوجته وأطفاله الثلاثة. وكانت معنا صبية حكت لنا فيما بعد أن أمها ولدت بنتين توم ماتوا الثلاثة في الملجأ.

- هل يوجد أحياء منهم هنا في المستشفى؟

- الذين نجوا قتلوا فيما بعد في حواجز الدكوانة...

الخــروج إلى المذبحـة

فتحية (ربة بيت وأم لتسعة أطفال): عاد وفد المخيم الذي قابل حسن صبري الخولي، وأخبرنا بأنه تم الاتفاق على أن تأتي سيارات الصليب الأحمر في الساعة الثامنة صباحا لإجلائنا من المخيم. المقاتلون أخبرونا انهم سينسحبون عبر طريق عسكري. قلنا لهم: لم تعد المخاطر تهمنا بعد الذي رأيناه، لذلك نريد أن نذهب معكم حاملين أطفالنا وعدتنا القليلة لنقاوم حتى النهاية، فأصروا على أن مهمتهم عسكرية بحتة، وإن الصليب الأحمر سيرحلنا معه. بعد إعلان الاتفاق من إذاعة الكتائب نمنا أول ليلة بدون قصف. في الحقيقة لم ننم أبدا رغم الهدوء. مشاعرنا كانت بين الخوف من مكيدة وبين الرغبة في إنقاذ ما تبقى، خاصة الأطفال الذين غدوا مجرد هياكل. منذ الصباح الباكر حملنا أطفالنا والقليل من متاعنا على الطريق العام. بعض الناس بقوا في بيوتهم مطمئنين. خلال الانتظار انهالت علينا القذائف بغزارة على الرغم من أن مقاتلينا التزموا بقرار وقف النار. مع ذلك بقينا ننتظر حتى التاسعة فازداد القصف علينا. تجمعنا عند الفرن وقد طلبنا من الشباب الذين عندهم سلاح عدم الرد على القصف حتى لا نعطيهم ذريعة. اشتد القصف فلم نستطع البقاء في أماكننا طويلا فحملنا عدتنا وأطفالنا وأمامنا الشيوخ يحملون الأعلام البيض، واتجهنا إلى الدكوانة على أمل اللقاء بالصليب الأحمر.

نزهة العوض: مع أول خطوات المسيرة وجدنا شابا مقتولا ووجهه على المزبلة. امسكوا بآخر وجروه من الصف من شعره وأطلقوا عليه النار وكوموه فوق السابق.. وهكذا بدأت المذبحة: هم واقفون على الجانبين، مدنيين وعسكريين، وجوههم تصرخ بالحقد. النساء يضربننا بالحجارة، وبعضهن ممسكات بالسكاكين . يخترقن الصف ويطعن من يقع بأيديهن. العسكريون ينتقون الشبان والصبيان ويجرونهم خارج الصف ويطلقون عليهم النار فورا، أمام أمهاتهم وآبائهم وإخوتهم . من يصرخ يكومونه فوق القتيل. كنا نسمع الرصاص أمامنا وخلفنا ويتساقط القتلى فندوسهم خلال التزاحم. تكدست جثث القتلى على جانبي الطرق حتى أصبح السير عسيرا. كنا نتطلع في وجوه القتلى لنرى أبناءنا، ونعرف الوجوه، لكننا لا نتوقف لأنهم سيطلقون النار. في منطقة الفندقية أوقفنا الحاجز الأول وانتقوا مزيدا من الرجال وحشروهم في سيارات الزبل. وهكذا فكرنا بأننا نجونا، لكننا وجدنا حاجزا تاليا فعل الشيء نفسه. في هذا الحاجز أخذوا زوجي. توسلت إليهم فجاء أحدهم ووضع الحربة على حنجرتي وأرغمني على السير والصعود إلى الكميون. أطفالي كانوا يصرخون خائفين أن يقتلني. هنا جروا الشابات من شعرهن إلى أماكن مجهولة، وجروا شابا اسمه محمود ياسين، وضعوا الحبل في عنقه وسحبوه بالكميون فتوفي وهو يرفس. ورأيت جثث شبان آخرين مشنوقين على الكميونات وشبابيك البيوت. بعد ذلك وضعوا صفا طويلا من الرجال، وتحرك الكميون باتجاههم وأخذ يدوس فوقهم، من يفلت من العجلات يجرونه ثانية بالحبال حتى يصبح تحت الكميون، وأحدهم يقول لنا «أحسن ما نخسر عليكم رصاص». في الحاجز التالي أنزلوا رجالا آخرين، صفوهم على الجدار وأعدموهم برشة واحدة.. وهكذا من حاجز لحاجز. في الحاجز الأخير عند محطة البنزين أنزلوا النساء إلى بيت يحرسه مسلحون، وفي داخل البيت نزعنا ملابسنا وحفاظات أطفالنا لتفتشنا نساء يبحثن عما تبقى معنا من نقود أو قطع حلي. في جانب البيت الثاني كانوا يعدمون بالرصاص من تبقى من صبيان وشباب.

هناك قالت لي بنت صغيرة بجانبي: انظري! نظرت: لحم منتشر على الجدران ورؤوس وأيدٍ مقطوعة. دخت وكدت أسقط من رؤية هذا العدد الكبير من الشبان الذين قتلوا. آنذاك اقترب مني واحد من نمور شمعون: «منذ ٣٠ عاما وانتم في لبنان وأزواجكن يفعلون بكن كذا وكذا، الآن سنجعلكن أرامل يا ...»

عندما دخلوا المخيم وجدوا عند زاوية ملجأ مهدم امرأة ولدت قبل ساعات ولم تستطع النهوض. قتلوا المرأة وبقي الطفل محمولا بيد أخيه الصغير. لم يبق من عائلة هذا الطفل أحد. بعضهم قتل بشظية، بعضهم مات من العطش، بعضهم مات وهو ينزف، وبعضهم دفن في الملجأ الذي انهار. من نجا أعدم في حواجز الدكوانة. خرج الطفل حاملا شقيقه الرضيع ولم يعرف مصيره أحد.

أطفال المجزرة

كأني ذهبت لأبحث عن هذا الطفل، أو عن الوليد الذي رأيته لأول مرة في حياتي حين زرت برفقة الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة، والرسام اللبناني إميل منعم، مدرسة أبناء الشهداء في الدامور العام ١٩٧٦. لم أجد في المكان حيوية المخيم المزدحم بالناس والحركة. على العكس، فقد أنشب المسيحيون، الذين هجروا خلال الحرب، وجودهم العنيد في البيوت المهجورة. الرصاص المصفر والشظايا الباحثة عن اللحم الآدمي اخترقت كل جسم واقف في المكان، من أعمدة الكهرباء، إلى لحاء الشجر حتى نول النسيج. كل ثقب يدل على جسد قتيل. في هذا الموقع تعرفت على شاب وشابة فلسطينيين تزوجا في واحد من البيوت التي تهدمت نوافذها وأبوابها، وبقيت مع ذلك تدل على بذخ سابق. الزوجة التي لم تبلغ العشرين قالت أنها تكره هذا البيت وتفضل عليه بيتها الأليف الفقير في تل الزعتر. والزوج يرد عليها مازحا:

- ما تصدق.. هي خيفانه.

ومم تخاف هذه الشابة التي عاشت عاما ونصف بين الجثة والرصاصة في تل الزعتر؟ الزوج يحثني على أن أوجه السؤال لها بالذات. ومن ترددها ومقاطعات الزوج أعرف أنها تخاف الاستحمام في البيت. فقد صرخت مرة وهي تستحم

على ضوء شمعة، إذ تراءى لها في زاوية الحمام المعتمة شبح عجوز كانت تسكن الدار وبقيت مختبئة فيه. ومن بعدها لم تعد تطيق البقاء وحيدة في البيت لأن أشباح الراحلين بقيت تطارد المقيمين الجدد.. هذه المدينة الموحشة المزدحمة بأشباح الغائبين بدت ديكورا طبيعيا لمدرسة أبناء شهداء تل الزعتر. دخلت المدرسة بخطوة حذرة مفترضا أني قادم لأطفال اجتازوا الطفولة والكهولة معا. مدرستهم في تل الزعتر قالت: لا تخف! إن كلمة الموت والمجزرة أليفة لهم. ففي أيار ١٩٧٣ قصفت آليات الجيش روضة التنك في تل الزعتر وقتل عشرة أطفال. كان المشهد مفزعا. فقد ظل الأحياء ينظرون لجثث الأطفال الذين قتلوا: لم هم نائمون، لم لا يتحركون!؟ الجثث كانت ملقاة في الساحة غير قادرة على الإجابة. خلال عام ونصف من مجزرة متصلة صارت الحكايات الوحيدة حولهم في المخيم: فلان مات، فلان جرح. اللعب الوحيدة التي بقيت متاحة لهم هي أغلفة القنابل الفارغة، بل التي لم تنفجر بعد، وتعلموا الحساب بصوت الانفجارات التي تقتل الأحياء حولهم، لذلك ما عادوا يطرحون أسئلة كهذه «ماذا حدث لهم؟» لأن الموت كان أسرع، وهو السؤال والجواب معا. تبدلت مفردات الموت: «راح» بدلا من «مات». إلى الدامور حملوا المجزرة التي غادروها باعتبارها صورة العالم الوحيدة. فالطفل حسين محمد فريجي لا يريد أن يلمس أية لعبة تقدم له، خائفا أن تنفجر فيه مثل تلك اللعب التي تلقى من التلال إلى المخيم. دخلوا الدامور حذرين من الهدوء المريب: ما من نافذة إلا وخلفها بندقية قناص، وما من شجرة إلا ووراءها كمين. في الليل ينامون وعيونهم نصف مفتوحة باتجاه الباب والشباك.

بدأنا استجوابنا بالكلمات:

– ما الذي حدث؟

الجواب هو الصمت: «أتعتقد أن ذلك هين؟! أن نروي ما حدث كقصة متسلسلة؟!»

ألتفت إلى المدرسين طالبا مفتاحا لهذه الذاكرة العصية:

- قتلوا أبوك؟

أفهم من سؤال المدير أنني يجب أن أدخل من جرحهم بالتحديد، ومن التفاصيل الدقيقة الأكثر وجعا.

- آه.

- كيف مات؟

- رشوه بالكلشن عند الفندقية.

- هل رأيته بعينيك؟

- آه... وأخوي معاه.

بالاختزال يبعدون التفاصيل الموجعة، ويبعدوني عنهم أنا القادم لاحقا لأخذهم من سوية اللحظة محركا أوجاع الماضي الذي لا يمضي. حين يتعبني اختزال الكلمات أدخل درس الرسم وموضوعه «مسيرة الحياة والموت في تل الزعتر». على الورق أتابع مسار الرصاصة من دير الراعي إلى باب ملجأ جاليري متي. كل شيء مرسوم بوضوح ودقة المذبحة التي حدثت في عز النهار وبعين ماتت فيها الدهشة والفزع لكثرة ما رأت. فـ«الرباعية» بفوهاتها الأربع المفتوحة كعيون ميدوزا مسلطة من التلة على المخيم المزدحم بالموت. بواحدة من رصاصاتها قتل طفل وامرأة ممسكة بيده:

-من هذا؟

-حسان.. خيي الصغير.. هو وأمي ماتوا بالقنص عند حنفية الميه.

المكان هو المكان نفسه كما قالت المدرسة، وكذلك الحادث بالتفصيل... فقد شهد الطفل القاتل والقتيل بذلك الوضوح الذي لن ينسى. لن أجرؤ أبدا على تحريك الحزن القاسي في عينيه بالسؤال عما حدث... كل شيء مرسوم، بلا رعشة، على الورقة التي سلمها لي كوثيقة تذكير صامتة. وعندما تسأله نيابة عني مدرسته سنية إبراهيم:

-ما هذا؟

- دم.

- دم؟

- آه، دم أختي الممرضة.

- وهذا؟

- قبر بيي.

نوخة الدوخي (١١ عاما):

- هذا خيي اللي استشهد.

- آه.. على التلة، كان يرفع علم فلسطين وقوسوه.

-...

- هذا خيي الثاني. استشهد بباب الملجأ. أمي قالت بدنا نستسلم. زعق عليها: الزعتر ما بيسقط، إجته قذيفة بباب الملجأ فتتته.

- الكميون... حوالي ٢٥ طفلاً اختنقوا بالكميون... الناس كانت تطلع على بعضها وكنا احنا نصرخ بدنا أبونا، قاموا قوسوا علينا. وتحت كان القتل شغال.

- رأيت ذلك؟

- آه.. واحد قالوا له نزل ابنك، ما قبلش. قوسوه وجروا ابنه ورا الجيب وكانت أمو شايفة وما قدرتش تصرخ.

أمال منصور (١٣ عاما): كانوا بيعذبونا كثير في الحواجز.. يقتلوا الناس في الشارع ويطلبوا من الشاحنة اللي فيها أم القتيل وأخته تدعس عليه. يعذبونا مرة بعد مرة وعند كل حاجز. لما وصلنا حاجز المتحف نزلونا ليعذبونا من جديد. الناس قالت: عذبونا في الحواجز السابقة؟ قالوا: معليش، كمان مرة.

- هل تحبين الرسم؟

- التمثيل أكثر. عملنا في المدرسة مسرحية وأنا سأمثل دور كريمة، ممرضة ومقاتلة وعندها أخ بطل إسمو محمد.

- عن ماذا تتحدث المسرحية؟

- كيف صمدنا وقاتلنا وشربنا ماء مخلوطا بالدم.

- وهل حدث ذلك فعلا؟

- آه.. مره رحت أنا ورفيقي نعبي مي. أجت القذيفة قتلت رفيقي. رجعت عالبيت وكان المي فيها دم. أهلي قالوا «معليش فيه دم» وشربوا الميه.

أحمد فلاح منصور (شبل عمره ١٠ سنوات): اسألني عن الحرب وأنا أحكيلك!

- كنت تقاتل؟

- نعم. في محور علي السالم قرب بيتنا وأخي على التلة. لما هجموا على التلة انجرح. اختي في الهلال فكرت استشهد. رجعنا للتلة لقيناه بعدو حي، جريح ويقاتل. استشهد بعدين من النزف بين ايدين أختي.

عز الدين المناصرة (شاعر ومدير مدرسة ومعسكر أطفال تل الزعتر): بدأنا المدرسة مع ٦٠ شبلا وزهرة، و كنا نعلم أننا سنعمل مع أطفال مميزين (٩٠٪ منهم فقدوا أبا أو أما أو كليهما)، ذاقوا التجربة بكل أبعادها المؤلمة والبطولية. البداية كانت محزنة جدا وفقيرة. فقد جلس الأطفال على الأرض في غرف بلا نوافذ، وجوههم منكسرة ذاهلة، صامتين يفعلون ما نقوله لهم بآلية: قفوا في الصف! يقفون مطرقين بسكينة. اجلسوا! يجلسون. قررنا عدم استعمال القسوة مهما كان حجم الخطأ. وكنا نخلق لهم جوا من النشاط يساعدهم على الاندماج حتى أخذوا يحبون المدرسة ويبقون في ساحتها حتى الخامسة مساء. وحين نتطرق للحدث نذكرهم بأن الذي شهدوه ليس كارثة إنما معركة بطولية، ولذلك ينبغي أن يفاخروا بكونهم أبناء شهداء. في البداية كانوا يبكون حين يتحدثون للصحافيين. الآن، كما تراهم يتحدثون بحزن، ولكن بفخر أيضا.

عايدة محمد (١٢ عاما): عندما اشتد القصف على المخيم قال والدي لأمي: انزلوا على الملجأ! أقفلنا البيت وذهبنا باتجاه الملجأ. كانت أختي مريم وعمرها سنتان تسير أمام أمي. جاءت قذيفة فصعد غبار ودخان. وبعد أن صحونا من صدمة الانفجار رأينا الطفلة، رفست رفستين وخمدت. بقيت أمي، وهي حامل في شهرها الأخير، تصرخ: ماتت العزيزة! بعدها بيوم كان بيي قدام الدكان، تصاوب بظهره وبوجهه. كنا وقتيها في الملجأ. سمعنا أخذوه عالهلال الأحمر. تركت أمي بتولد في الملجأ ورحت للهلال وكنت عارفه إنو حالته خطيرة ومش قادر يحكي. منعني الطبيب. عرفت إنو مات. ما خبرتش أمي، هي عرفت لحالها، قالت روحي تأكدي وما ترجعي إلا لما تشوفيهم يدفنوه. لم يدفنوه بسبب القصف. أمي تعذبت كثير وهي تولد، كان بدها تشوف جثته قبل ما يدفنوه. بدت أمي تولد وأنا رحت أجيب ميه الها ولأخوتي الصغار. كان القصف شغال والناس يموتوا في الطابور. بقيت شي عشر ساعات ورجعت الصبح لاقيت أمي ميته ووجهها للحيط بعد ما ولدت توم سميناهم

مريم واسمهان. أخوي الكبير كان متصاوب، سألني بباب الملجأ، خفنا عليه من النزيف، قلت له أمي نايمه. ما صدقش نزل عالملجأ كشف وجهها شافها ميته صار يبكي: مين بقى للأطفال؟ وكانت أختي الصغيرة عمرها خمس سنين ماسكه أمي وتبكي وما تقبلش أكل ولا ميه.

روضة بدران (ممرضة ومقاتلة في تل الزعتر، مدرسة في الدامور): عشت معهم التجربة بكاملها لذلك يسألوني باستمرار: لماذا نحن هنا؟ وأجيبهم بصراحة كما أحدث الكبار لأن من الصعب إخفاء الحقيقة عنهم. في البداية يفزعون ويلتمون عندما يسمعون صوت الرصاص والقذائف. وكانوا حزينين خاصة البنات، تنزل دموعهن لحالها. الأولاد كانوا قساة بدهم يمسكوا واحد كتائبي ويمزقوه.

حسين فريجي: يحلم يأخذ ثأره، بالحلم. صبية كتائبية سقطت في الجورة وبقيت أصابعها ممسكة بالحافة. الصبية بعمر أخته اللي انقتلت في المخيم. ضرب أصابعها بالحجر حتى سقطت تحت. كل أحلامهم قاسية. يتدربون على السلاح للثأر لأهلهم. كانوا حزينين عصبيين خائفين، لكن بالتدريج صاروا يتقبلون الحياة.

هنية بدران (١٣ عاما): خيّي وبيّي طلعوا عند تلة المير ليقاوموا الكتائب. فوق التلة تحت العلم استشهد بيّي وتصاوب خيّي، وبعدين استشهد من النزف. أمي كانت مصاوبة بظهرها، لولا أختي كانت استشهدت برضو. أختي كانت ممرضة في الهلال الأحمر طلعت الشظايا من ظهرها، وحدة وحدة. خيّي وبيّي دفناهم بجوره بالزعتر.

– واختك؟

– ما قبلت تروح معانا عالدكوانه. قالت «أموت بشرفي وما اموت عند الكلاب». طلعت عالجبل واستشهدت وعمرها عشرين وهي تقاتل كمين كتائبي.

منصور (١٢ عاما): في المخيم كان فدائي يضرب عالملالات. أنا أناوله صواريخ. يضرب تطير الملالة ألف قطعة. نفرح ونبوس بعض. لما سقط الزعتر حملتني أمي أنا وخيي الصغير للكميون ورجعت لتجيب بقية إخوتي. رأيت عمتي صالحة في الساحة. ناديت عليها ما سمعتش.. كانت زي المجنونة.. الكتائب قتلوا ابنها وزوجها تحت الكميون. بعدين شفت شبان، وبينهم صبيان بعمري، صفوهم عالحيط وخرطشوهم. حاولت الهرب عن طريق ضيق إلى النبعة. من هذا الطريق جاءت ختيارة كتائبية لابسة أسود وبيدها حجر كبير. حاولت أن تضربني أنا وأخي الصغير. زغت منها. كانت تصرخ: «قتلتوا ابني يا عرصات!» بعدين شفت واحد قطعوا وريد رقبته بالسنكه والدم يطلع من رقبته زي النافورة. كان فيه نسوان يخبطوا عليه بالحجر وبمدقات البفتيك لحتى خلص. كانوا يسألون عن بنت اسمها «فادية» كانت جنبي، قلت ما بعرفهاش. جاء «الأحرار» وهم يخرطشون علينا: قولوا يعيش شمعون! فيه ناس قالت، وفيه ناس ما قالتش. بعدين جاء ابن بيير الجميل. قولوا يعيش بيير الجميل! تعالوا بوسوا السباط! قولوا... من أبو عمار.... من جنبلاط؟ في الكميون رأيت أم تخبي الذهب في حفاظات ابنها. في حاجز المتحف أخذوا الذهب وأعادوا الطفل ميتا.

رسمية إبراهيم (مدرسة في روضة أطفال تل الزعتر): أنا مثلهم من تل الزعتر. أتعامل معهم كأخت كبيرة وأتعلم منهم الصبر. وهم بدورهم يفضلون أن يسموني «أخت» بدل «ست». أجمل لحظات الدراسة عندهم عندما نقف في نهاية الدرس وننشد للثورة. أغلبهم يتامى بحاجة للحنان، لذلك يحاولون كسب عطف مدرسيهم، فيصرون على أن نصاحبهم إلى بيوتهم حين نلتقيهم في الشارع. هناك أطفال عنيفون. لا يريدون أن يغنوا أو يرسموا. فقط يعملوا كلشنات من خشب ويمشوا طوابير عسكرية ويتقاتلوا في الشوارع. عندما أعطيناهم أقلام الرسم كانوا يرصوها بقوة، ورسومهم مخربشة وقوية.

نقول لهم: ما هذا؟ يقولون: هذا دم، هذا دخان، هذه نار... ومرات فيه بنات يرسموا تل الزعتر ملون ومزخرف وفيه ورد. نسألهم: هيك تل الزعتر؟ يقولوا ما بنعرف نرسمو غير هيك.

إميل منعم (فنان ماروني لبناني درس أطفال تل الزعتر): يجيدون تصوير الأسلحة بخصائصها الدقيقة: ألـ «ميم طاء» والـ «٥٠٠»، كما هي تماما، ببوزين وشرشور، ويعرفون استدارات المتاريس واتجاهاتها. عندما يرسمون صورة بانورامية للمعركة يحددون المواقع كما هي: محور أبو سالم، الكتائب فوق التلال، مستشفى الهلال الأحمر. والاختلاف في الاتجاهات يعود لأنهم رأوا المعركة من نواحي متعددة. مع تعديلات بسيطة يمكن أن تتحول رسومهم خارطة تفصيلية للمعركة. لديهم ميل شديد لتأكيد الأشياء التي أثرت فيهم. يرسمون الدم بلون أحمر حاد ويكتبون بجانبه «دم». يرسمون المرأة التي قتلت عند البئر، وربما كانت أمهم، يسيل منها الدم ويرسمون الرصاصة من لحظة خروجها من بندقية القناص فوق التلة، عابرة التفاصيل الثانوية، حتى أصابتها المرأة الواقفة عند بئر الماء، وربما كانت أمهم، الدم يسيل منها ويكتبون بجانبها «امرأة كانت تحمل الماء وأصابتها رصاصة قناص كتائبي». صحيح أن البشاعة هي الغالبة على رسومهم (القذائف، القتلى، الدم)، لكنك إذا بحثت ستجد شجرة أو غصنا موردا، وأحيانا فوق دبابة.

من نافذة الصف تمتد أمامي نازلة بساتين الحمضيات. أحاول أن أهدئ نفسي بخضرتها المتعافية وبزرقة البحر الممتد إلى اللانهاية. أسمع جرس الاستراحة وأقول لنفسي: مستحيل! لا البحر ولا بساتين الحمضيات ولا عرائش الكروم في الدامور استطاعت أن تثبت حضورها في ذهن هؤلاء الأطفال.. فقد ألغت ذكريات المذبحة التي خرجوا منها تواً كل شئ عداها. لكنهم يلغون فرضيتي بلحظتهم الراهنة. فبعد أن فرغوا تواً من رسم تفاصيل المجزرة، انتشروا تحت الشمس، في ساحة المدرسة، مندمجين، كما في كل مدارس

العالم السوية، بتلك الحركة النشيطة الصاخبة بعد ضغط الدرس: صبيان مشاكسون يجرون ضفائر الطالبات، وطفلة تحجل على قدم واحدة عابرة الخطوط البيضاء، يتقاذفون كرتهم في مواجهة الشمس، او يتحشدون أمام كامرتي مادين ألسنتهم ساخرين من فرضيتي. المدير قال: جئت متأخرا. والطفل محمد المنشاوي الذي رأى مقتل والده وأمه ردني:

- يعني عايش. شو، أضلني طول عمري أبكي؟!

لقد تجاوزوا التفاصيل الموجعة لكي يندمجوا مع حيل الحياة الأكثر تساوقا مع طفولتهم. تكيفوا مع الهدنة، لكنهم لم يفقدوا الخوف والحذر. فوراء مشهد الأشياء السوي الهادئ هناك لحظة تكمن فيها فواجع ما رأوه، وستعود الصور بتفاصيلها الموجعة. لهذه اللحظة القادمة أحبوا السلاح والتدريب العسكري.

بعد سنوات عدت لهذا المكان مع صديقي الروائي الراحل غالب هلسا، فقد وجد غالب في شخصية المقاتلة آمال أبو علي، بطلة رواية لن يمهله الموت لكتابتها. معه كنت أحاول أن أتلمس ثمالة الماضي بعد أربع سنوات من تلك المجزرة: الطالبة فريال قشاعدي التي قتلت أمها وأبوها في تل الزعتر لم تستطع الحياة بذاكرة اليتيمة، لذلك تقبلت وضعها الجديد وقفزت عقدا فوق عمرها لتصبح المعيلة الوحيدة لأخوتها الصغار. تذهب لشباك المساعدات وتجيب على الأسئلة الإدارية، وتأخذ عنهم مخصصات الإغاثة وعائلات الشهداء. لقد أصبحت أما وهي لم تبلغ عامها الخامس عشر. بعض الشابات تزوجن وخلفن أطفالا، وهناك مقاتلون نجوا من تلك المجزرة واعتقدوا أنهم لن يموتوا أبدا بعد معجزة الحياة، مثل الملازم محمد شحادة، لكنهم قتلوا في المجازر التالية. الأطفال الذين رسموا تلك الأهوال على الورق، رسموا على الأرض حياتهم فأصبحوا الجيل الثالث من المقاتلين الفلسطينيين.

جيل الحرب الأهلية

عندما عدت للمخيم أواخر العام ١٩٧٩ كانت الحرب الأهلية اللبنانية قد تركت بصماتها الواضحة عليه: الجدران ازدحمت بصور الشهداء. أتلمس ملامحهم التي تجمع الحزم وخفة الروح باحثا عن وجوه أعرفها. أغلبهم من الجيل الثالث الذي رأيته سابقا في أزقة المخيم يتزاحم أمام كامرتي وهو يهش الذباب عن عينيه. خارطة المخيم تغيرت أمامي أنا الباحث عن ذلك الشارع الوحيد الذي كانت ترزوده السيارات. الامتداد الأفقي للبيوت المتقاربة الارتفاع والفقر اخترقته عمارات مزدحمة بالمحلات والمكاتب التجارية. وتوسع المخيم أفقيا نحو الأحياء المجاورة. هناك سكنت الطبقة الجديدة التي تريد أن تغادر المخيم وتحتمي به في الوقت نفسه.

ما تزال الأسواق مزدحمة بدكاكين الصفيح والعربات التي تبيع الخضار لتغذي المدينة الشرهة. ولكن في وسطها قفزت فجأة محلات ملابس وعطور وأدوات كهربائية وسجاد لا تتناسب مع فقر المخيم المفترض، هي من نثار الوسط التجاري البيروتي الذي أحترق ونهب خلال الحرب الأهلية. معالم لبنان المرفهة اخترقت المخيم: محلات الفليبر والعصير وأغاني فرقة البوني إم إلى جانب مارسيل خليفة وفرقة الميادين. الناس أيضا تغيروا فاستطالت شعور الشبان وضاقت سراويلهم وطريقة مشيتهم، وانعكست صور أبطال الأفلام، خاصة رامبو، على ملابسهم وتسريحة شعرهم وطريقة مشيتهم المتمهلة

المتمايلة، بل على طريقة حملهم بندقيتهم.

أسلم على بعض من أعرفهم، فيصدمني النسيان وردود الفعل الباردة. أعلل هذا بأنه نوع من المناعة المكتسبة بدونها لا يستطيع الفلسطيني معايشة الكوارث المتتالية. لقد فقد القدرة على التذكر لكثرة ما تغيرت الأمكنة حوله، ومعها ناس ذهبوا نهائيا وخرج آخرون لم يعرفهم من قبل. أبدأ بالمخيم من نهايته في حرش الصنوبر نحو مربط الخيول التي كانت تهيج مع القصف وتدور بين الحرش، الذي تأتي من خلفه رصاصات القنص والقذائف المتنارية، وبين باب الإسطبل الخشبي الذي يحركه القصف، أو تهيم مع الناس في أزقة المخيم وهي تضرب الجدران بحوافرها. هنا في هذه البناية التي كانت يتيمة في المخيم ووراء ذاك الباب الذي طلي بالأحمر ولد ابني نصير. أبحث عن الحارس الصغير الذي أخرج في ليالي الأرق لأشرب الشاي وأدخن معه. ذات يوم دخل علي قاطعا شريان يده بشفرة حادة بعد حكاية حب فاشلة. ما من أحد يعرفه: هناك عشرات المقاتلين من عمره يحملون هذا الاسم (أبو عرب)... أتابع البيوت التي تنقلت بينها حسب اتجاهات القصف وتغير الأعداء: في هذا الزقاق الضيق أعطتني الأرملة (الحاجة) بيتها الذي لا يطاله الرصاص ولا القذائف، واشترطت علي شرطين: أن لا أرفع عن جدار غرفة الجلوس صورة زوجها الشهيد. بصورته عاش معنا فترة القصف العشوائي غير آبه بدوي القذائف محدقا في من ينظر إليه بعيني ذئب له شاربان طويلان يحط عليهما الصقر، طائران خارج وجهه النحيل المشدود، بل خارج إطار الصورة. شرطها الثاني أن لا أمس درفة مقفلة من دولاب فيها ملابسه. ستأتينا كل جمعة بعد الصلاة وزيارة المقبرة لتفتح الدولاب وتتشمم ملابسه، وتغادرنا بهدوء بعد أن تودع صورته على الجدار. في نهاية هذا الزقاق، الذي لا يتسع لعابرين، بناية تقع على حافة المخيم. في الشقة المرقمة ٤ في الطابق الثاني انتحر صديقي الفنان إبراهيم زاير برصاصة في الرأس على سرير يفصله

عني جدار تاركا على قلبي دملة لا شفاء منها وورقة بحجم راحة اليد: «قررت إنهاء حياتي هذا اليوم ١٩٧١/٣/٢٣، آسف لإزعاجكم. إبراهيم زاير.»

بين المخيم ومقرات المنظمة جيش مبعثر من مقاتلي الجيل الثالث، يحملون الرشاشات المتوسطة وقاذفات الصواريخ قبل أن يشبعوا من لعب الطفولة. هذه اللعبة الدميمة تبدو كأنها خلقت معهم ذراعا للقتل والدفاع. لقد ضاقت بهم جبهة المواجهة في الجنوب، وما عادت تتسع لهم، فازدحموا في هذه الثكنة الضيقة، وأدمنوا حياة المدن والعطالة المستتبة بعد توقف الحرب الأهلية. يجلسون عند أبواب المنظمات أو يتجمعون في محلات الفليبر بأسلحتهم الكاملة بانتظار نوبة الحراسة حيث يمطون أجسادهم من الكسل ويراقبون الفتيات العابرات طوال اليوم. الأسلحة التي بين أيديهم تستدعي الفعالية وتستدعي توتر روح أدمنت القتال ولا تعرف عملا غيره، بل لا تعرف أفقا للسعادة والمستقبل، بعد أن نأت الآمال وأصبحت الأهداف غامضة. ولذلك يترقبون بلهفة أي قتال حتى ولو مع منظمة أخرى، ويذهبون إليه بسرعة تشبه الغياب. فهناك مجال موهبتهم الوحيد، حيث الواحد إما قاتل أو قتيل. لا يريدون أن يتساءلوا أو يسألوا عن السبب والجدوى، لأن القتال أصبح هدفا لذاته ما دام العدو بعيدا عنهم. وقد كنت شاهد قتال عنيف أندلع فجأة بعد زخة رصاص عند أحد الحواجز. لم ينتظر المتقاتلون إيعازا ولا نتيجة لحوار بين القادة، إنما ذهبوا إليه بكل عنفهم المخزون، وبكل ما لديهم من أسلحة متوسطة وثقيلة في مساحة قتال لا تتجاوز الثلاثة كيلومترات مربعة بين بضع بنايات. لم أستطع الهدوء وأنا أتخيل أناسا، بينهم شيوخ وأطفال لم يأكلوا تفاحة الخطيئة مثلنا، يموتون في هذه اللحظة. ومن الشرفة كنت أرى مزيدا من السيارات المسلحة تحمل صبيانا مدججين بالهاونات والبي سفنات ذاهبة بسرعة إلى ساحة القتال الضيقة لتزيد الجحيم جحيما. مجموعة منهم صعدت بنايتنا لتنصب دوشكا على السطح لتتسلط منه على مكتب المنظمة الثانية. كل تكتيكات قتال

الفنادق في الحرب الأهلية استخدمت هنا في هذه الرقعة الضيقة لتطويق مكتب والاستيلاء عليه، فلا بد لواحدة من القبيلتين أن تذل الأخرى وتجبرها على التسليم. وفي فترة الاستنفار التي تلت الهدنة رأيت المتقاتلين في الزوايا ينتظرون رصاصة واحدة تلغي السكون المريك وتعيد فعالية القتال. الخوذ الحديدية الثقيلة مسدلة على وجوه لم تنبت شواربها بعد، والصدور مدججة بالرصاص وعلى الظهر قاذفات الصورايخ. مع هذه الهيئات من الصعب تلمس مصادر رقتهم وإنسانيتهم التي توارت خلف هدا العنف الذي تحول إلى غريزة وإدمان. فالتوتر والقسوة شدّا أعصابهم حتى النهاية، وألقيا عليهم غلالة كهولة مبكرة. وقد كدت أنسى فيهم همة الصبيان وهم يستقبلون الأطفال العائدين من روضتهم ويداعبونهم ويشترون لهم الحلوى، أو يحملون قناني الغاز ليوصلوها لنا نحن سكان الطابق السادس دون أن ينتظروا كلمة شكر، كأنهم يفعلون ذلك لأمهاتهم البعيدات. كدت أنسى ذلك الجوهر الذي تبدى فيهم خلال غارة الطيران الإسرائيلي: فقد هرعوا إلينا نحن السكان المدنيين يدفعوننا وأطفالنا نحو الملاجئ، وينيرون طريقنا ببطارياتهم اليدوية، وبعد أن أوصلوا العجوز الأخيرة خرجوا إلى الشارع المكشوف دون حماية، منذورين للموت.

ببدلاتهم هذه بدوا كأنهم لا يجيدون لغة غير العنف فتتحرك العضلات حين يتأتئ اللسان عاجزا عن التعبير. وفي ما عدا هذه الأغاني التي تعطي وجودهم رومانسية وشاعرية الفعل الثوري، توارت المثل في أذهان هؤلاء الصبية وراء صور الفساد الذي رافق الحرب الأهلية: عمليات اقتحام المحلات التجارية لنهبها وحرقها، واحتلال الشقق الباذخة. ولا تزال المدينة بأسواقها المنتشرة وسلعها القريبة والمستحيلة في الوقت نفسه تراود هذا المراهق المسلح. وتستطيع القوة أن تأخذ مكان المال في خيال الصبية الفقراء الذين يرون الأمور من فوهة بندقيتهم. وعندما أبديت لأحد القادة تخوفي على جيل

المقاتلين الذي نشأ بعد الحرب اللبنانية، قال لي بأن تحت هذا المكتب سجن مليء بصبيان بمثل هذا العمر... «ومع ذلك لا نستطيع أن نضغط عليهم أكثر إذا ضبطناهم بيطفشوا». صورة المقاتل بهتت في ذهن سكان المخيم البسطاء الذين تؤثر الأمثلة الحسية السيئة في تصورهم قبل استنباط السبب والنتيجة. وفي أحيان كثيرة يحدث اختلاط بين المقاتل و«الأزعر». لذلك يضغط الآباء على أبنائهم لكي يعقلوا ويتزوجوا حالما يبلغون سن الرشد ليكوّنوا بيوتا مثل الآخرين، معللين الأبناء بأن ذلك أفضل من هذه البطالة التي لا معنى لها. وإذا تطلب الواجب الوطني فها هي البندقية معلقة ولن تصدأ في هذا المخيم الذي يعيش بين الحصار والقصف.

الفجــوة

بين مخيم صبرا وبين مقرات المنظمة في الفاكهاني مسافة قصيرة أقطعها في أقل من عشر دقائق مشيا على قدمي. لكنها في الواقع هي المسافة بين شعب وسلطته. من المخيم ولدت هذه السلطة. فالمكان لازم لتجسيد الهوية الوطنية في الشتات. وقد تبلورت هذه الهوية في المخيم الذي حافظ على اللهجة الفلسطينية وكذلك العادات ووحدة المأساة من الذوبان في بيئة المنفى. ومن وحدة المخيم ولدت المنظمة لتأخذ شكل حكومة المنفى التي يحتكمون إليها في أدق شؤون حياتهم بعد انفصالهم الروحي عن هيئات الدول المضيفة. تلم المنظمة شتاتهم في المنفى وتعطيهم معنى وكرامة ونوعا من الإيجابية الفاعلة بعد أن كانوا لاجئين لا يملكون غير الانتظار. كما أخذت بعض مكان وكالة الغوث . فعلى خلاف المنظمات الأخرى التي تعيش من تبرعات مواطنيها أصبحت مصدر رزق قطاع واسع من سكان المخيم من العاملين في مؤسساتها كمتفرغين للعمل الإداري أو كعوائل مقاتلين أو شهداء. كما أخذت المنظمة مكان العشيرة في مثل الفلاح. ففي لغة الكهول تحذف صفات «الديمقراطية والشعبية» ويحل اختلاط الأسماء بـ«جماعة فلان». وغالبا ما كانت علاقة اللاجئ بالمنظمة هي الطاعة دون اعتراض، أو إحالة السيئات إلى الكوادر الوسيطة، ومنح القادة العصمة الخلقية نفسها التي يتمتع بها شيوخ القبائل.

وباستمرار كان التجاور المكاني بين المخيم وحكومته في المنفى لازما للاثنين. فالحزام العسكري البشري الذي يحمي الوجود السياسي للمنظمة يأتي من المخيم بشكل أجيال من المقاتلين. والمخيم للمنظمة هو العمق البشري الذي بدونه تصبح القضية شيئا مجردا يمت للماضي. إلى المخيم يشير القائد وهو يخطب في الحشد حين يقول كلمة «شعبنا». وهو مع كل ذلك المرجع الأخلاقي والسياسي الذي يفترض أن تحتكم إليه المنظمة. وبوجود المنظمة لم يعد المخيم مكانا للتملك والسكن، إنما ارتبطت أهميته بوظيفته السياسية والعسكرية. ففي فترة العبوات الناسفة العام ١٩٨١ شهد المخيم ومحيطه ما معدله ثلاثة انفجارات يوميا . كل شيء كان يتفجر، إذن فهو قابل للانفجار أيضا: السيارات الواقفة على جانب الشارع أو السائرة فيه، المصاعد الكهربائية، صناديق القمامة، قناني الغاز، علب الكلينكس... وحتى علب الحلويات. في هذه الفترة سألت قائدا فلسطينيا من الجيل الذي لم ير الوطن:

- أهناك أسوأ من هذه الأيام؟

- نعم!

- وما الأسوأ؟

- الأسوأ أن نفقد المكان الذي نقف الآن عليه.

وما كان المكان الذي نقف عليه يمنح أي إحساس بالأمان والثبات، ولكن ضرورته سياسية وعسكرية أكثر منها سكنية. وقد ارتبط المكان عضويا بالجماعة، وبالمنظمة التي برحيلها بدأت مجزرة صبرا.

المجازر المتتالية والقصف العشوائي والعبوات الناسفة أزالت آخر الأوهام عن إمكانية تحييد البيت عن الخطر الذي يستهدف المنطقة والعائلة عن الجماعة. وساكن المنطقة يعرف بالملموس والقصد أنه مقيم في قاعدة. ولذلك فإنه لن

يأمن جدران بيته، إنما يشيد حوله جدرانا متحركة من الحذر الواعي الذي يتهجس الخطر قبل أن يمس بيته. ويبدأ الخطر حين تستنفر المنظمة. فقد أرتبط أمن المواطن الشخصي بأمن المنظمة.

ولكن على الرغم من هذا التجاور المكاني والمصيري بقيت هناك مسافة غربة بين المنظمة ومواطن المخيم. فالمسافة التي لا تتجاوز الدقائق الخمس بين المنظمة والمخيم هائلة في شكل الحياة ولغة الحوار. في المكاتب يتجه كل شيء بعيدا عن المخيم؛ التضخم الإداري غير المنتج الذي كثيرا ما يقترن بالفساد والبذخ الذي يذكر بالدول النفطية أكثر من المنظمة النضالية. ومهما ارتفعت نبرات النقد تجاه الفساد والبذخ والتضخم الإداري، فإن المنظمات المنتقدة، في الواقع، تعيد تكرار مؤسسات المنظمة الأم بعدد وإمكانيات أقل: مكاتب الطبابة التابعة للمنظمات تكاد تتجاور داخل المخيم، وكذلك مراكز الشباب والرياضة والمكاتب الإعلامية والمنظمات الجماهيرية، والأمن الوطني... واحدة بواحدة. ثمة لافتات أكثر من العاملين والمراجعين. ومع ذلك فإن وجود وكثرة هذه المؤسسات يرضي الحاجة إلى الهيبة في العقل القبلي الذي يقود المنظمة. لا تستطيع المنظمة أن تكسب ولاء جمهورها بالفكرة والممارسة وحدهما، إنما أيضا بهذا الحضور المؤسساتي المتناسل الممتد، بما فيه من تركز إداري لا فاعلية فيه، وحراسات عسكرية يعطيها شكل النظام وهيبة القبيلة. كل فرع في جهاز المنظمة الأم يضم في داخله نسخا من الجهاز العام، من الإعلام إلى الأمن الفرعي إلى المالية والعلاقات ليصبح مركز قوة منفصلا داخل المنظمة. وفي هذه الشبكة يمكن أن يتواجد كل الفساد الذي يحتمله جهاز الدولة مع فارق أنه فالت من ضوابطها ومن العواقب الإنتاجية لهذا التضخم والفساد. ويرى أبناء المخيم ذلك بمرارة توضع بمقارنة حادة مع فقر المخيم، ومع ذلك الشيء المقدس الذي لا يرد (الشهداء). ودائما كان الظرف الأمني وما يتطلبه من سرية عمل عنصر حصانة يتوارى خلفه الفساد الإداري بعيدا عن رقابة

المخيم. ولذلك، يشعر أبناء المخيم بغربة عن هذه المؤسسات التي يفترض أنها تمثلهم. ودائما يخلق غياب المثال الآخر نوعا من التسليم بالأمر الواقع باعتبار ذلك نوعا من القدر. ويمثل هذه العقلية فإن الكثرة العددية للمنتسبين تشكل عنصرا حاسما يتغلب على قناعة وجدارة المنتسب.

القادة الذين صعدوا شبانا في نهاية الستينيات ووضعوا كمقارنة بين أمل وتجدد في مقابل قادة الحركات التقليدية الذين ثبتوا وجودهم من خلال المشروعية التاريخية، أعادوا الآن الدورة ذاتها. فالأمناء العامون بقوا في هذا المنصب منذ الستينيات، وأقلهم مضى عليه أكثر من خمسة وعشرين عاما في المنصب نفسه. والصراع بين الأمين العام ومساعده مستتب بلا خلافات فكرية مكشوفة للقواعد، يأخذ شكل استقطاب على حافة الانشقاق. مع ذلك بقي وجود المنظمة يشكل نوعا من الحماية الأمنية والقانونية لوجودهم في بلدان اللجوء. المنظمة ابتعدت عن المخيم بتركيبها البيروقراطي، وبفوقية نشاطها السياسي القائم على مفاوضات دون تفويض شعبي. النزعة النقدية الصارخة التي تصاعدت بعد رحيل المنظمة إلى تونس ولدت منظمات الرفض التي خالفت الموقف السياسي للمنظمة الأم، ونسخت أخطاءها بُنيةً وممارسة. الافتراق المعنوي بين المنظمة ومخيماتها ترافق مع افتراق مكاني بعد انتقال المنظمة إلى تونس، ونأى فقر المخيم عن خيال كادرها الإداري كعنصر ضغط أخلاقي يقابل مستوى حياة يضاهي مستوى دبلوماسيي الدول الغنية. في فترة الفراغ هذه، وبعد حرب المخيمات عدت إلى المخيم. الجيل المنسحب من قواعد القتال إلى المخيم بدأ يتزوج ويخلف ويبحث عن وسيلة عيش في بلدان اللجوء. ولذلك، انتشرت الدكاكين وتفرعت الأسواق وعربات البيع داخل المخيمات. في واحد من هذه الأسواق عرفت مناضلا قديما خط الشيب فوديه وازداد بدانة على ما تركته قبل سنوات، فتح محلا لبيع البالات وآخر لبيع الأثاث المنزلي. أسأله عن الجامع بين الاثنين. وبحسه الساخر القديم يجيبني:

تحالف الكادحين والبرجوازية الوطنية.

الحياة العادية نفسها تدهورت في المخيم بعد خروج المنظمة وتحكم مؤسسات الإغاثة التابعة لمنظمة الأونروا، ذات التاريخ البيروقراطي الطويل، بمصائر ناس المخيم. انعكس ذلك أولا على التعليم. فرغم بؤس اللجوء حقق جيل اللاجئين الأول والثاني معجزة لا تقل عن الثورة. فمن الخيم وبيوت الصفيح تخرج جيل من المهندسين والأطباء والمعلمين استطاع أن يقهر الأمية ويشكل القيادات السياسية للثورة، في حين أن عدد المتعلمين في المدارس والمتخرجين منها بدأ يتراجع بشكل حاد منذ نهاية الثمانينيات. الإحساس الحاد بالغبن والمرارة انعكس على جيل من معوقي الحروب الذي وجد نفسه بعد رحيل المنظمة وتراجع الثورة وقد خسر كل شيء، بما في ذلك القدرة على العمل. هذه المرارة عانتها عوائل الشهداء التي تاهت حقوقها بين الشعور الممضي بالخسارة وبين الإدارات البيروقراطية.

المرأة في المخيم كانت الضحية الأولى لهذا اليأس الذي أعقب غياب المنظمة ونشاط التيارات الأصولية فاكتسح الحجاب بيوتا لم تكن متزمتة ولكنها ماشت الموجة، وبدأت حالة انكفاء داخل البيت المستور. أسأل النساء عن تغير المواقف:

– كانت الحالة أحسن. المقاومة كانت كبيرة بلبنان والأخ والأب منتظمين، وما كان الأهل يرفضوا، لكن بعد الاجتياح الإسرائيلي وحرب المخيمات صار فيه يأس وخف الحماس وصاروا الأهل يقولوا لنا: مع الزلم ما زبطتش، بدها تزبط معاكم؟!

– بعد المجازر صار فيه خوف كثير. تضحيات كبيرة بلا تغيير. صارت الحياة أغلى وزاد الضغط علينا. أمنية البنت أن تتزوج واحد متعلم يخلصها من ها الضغط ويخليها تعمل.

– وحتى لما تتزوج بيجي ضغط الولاد والبيت ويصير الحمل أكبر.

الغطرسة الإسرائيلية التي اجتاحت بلدا عربيا مثل لبنان ورعت مجزرة صبرا وشاتيلا، وفي الداخل وصلت اوجها في حملة تكسير عظام لشبان فلسطين وصلت حدود الجنون دون رد عربي أو دولي. المخيم الذي عاش الغطرسة حد الدم، وتعب من انتظار الرد، بدأ يبحث عن بطولات جديدة وشكل جديد من العمل. عجز الذات يفرخ أوهاما وحلولا من خارجها. في هذه الفترة شغل المخيم مثل كل محيطه الشعبي العربي بمسلسل «رأفت الهجان» عن رجل مخابرات مصري دخل إسرائيل متنكرا وحقق بالوهم ردا معنويا باختراقين: اختراق الجهاز الذي لا يقهر «الموساد»، واختراق شرف الدولة المتغطرسة بإقامة علاقات جنسية مع نساء تل ابيب اللواتي تكالبن عليه. في فترة العجز العربي والفلسطيني هذه قدم رأفت الهجان، ولو بالوهم، تعويضا للذات الجماعية اليائسة. وفي ما بعد خلقت صواريخ صدام حسين (القادرة على إحراق نصف إسرائيل) وهما آخر بإمكانية خرق الهدنة المذلة وتهديد أمن الدولة المعربدة التي أذلت الجميع . الرد النقيض جاء عبر سلسة عمليات انتحارية فردية. البطل سيقف أمام كاميرا تلفزيونية ويقدم نفسه بصفته «شهيدا» مسبقا ويبلغ المشاهدين رسالة نضالية ثم تبث الرسالة بعد التنفيذ. تكثفت هذه العمليات الانتحارية في فترة اليأس العام. حزب الله في لبنان والمنظمات الفلسطينية ردت على تهديدات إسرائيل بأن هناك جيشا من الشبان الذين سجلوا أسماءهم لتنفيذ عمليات انتحارية:

– أنا مش متزوجة. أحيانا أفكر: أنا ما ورايه شي، لا زوج ولا أطفال. يا ريت أشارك بشي عملية، مثل سناء محيدلي، واستشهد.

– على طول ابني الصغير (١٢سنة) يزعل علينا، يهددنا، بدو يروح لجنوب لبنان يتحزم بالقنابل ويعمل عمليه انتحارية.

لم يكن كل أفراد هذا الجيش يطمعون في الجنة المفروشة تحت أقدام الشهداء، إنما أصبحت البطولة الفردية تعويضا عن عجز الجماعة. في هذه الفترة

شاركت في فعالية ثقافية في المخيم لتمجيد هذه البطولات حضرها قائد فلسطيني بسيارة مرسيدس حديثة. الجمهور الذي دخل الحفل كان يضرب حديد السيارة بقبضات يده ويسأل: لم لا يعطون السيارة لتنفيذ عمليات انتحارية. ومع حدة النقد هذه ينسى المخيم كل اعتراضاته ويهب للدفاع كلما أستهدف المنظمة خطر خارجي. وقد رأيت مرارا وداع الزوجات الشابات الحزين للأزواج كلما أعلن النفير العام. لن يطلبن منهم التريث والحفاظ على النفس لأنهن يدركن بالفراسة عقم المحاولات. كما رأيت تلك الوحدة المتحدية التي رافقت تشييع القائد الشهيد أبو جهاد.

وفي فترة اليأس هذه نشأ في المخيمات جيل رابع على المشهد التلفزيوني للانتفاضة في الداخل، هذا المشهد القريب حد اللمس والبعيد حد المستحيل: شبان صغار في عمرهم تماما، أبناء مخيمات مثلهم، وربما يمتون لهم بصلة قرابة، يخرجون كل يوم إلى حافة المخيم ليواجهوا بالحجر جنود الدولة التي هزمت العرب. الانتفاضة كانت في وجه من وجوهها انتفاضا على الذات. فقد قدمت مثالا نقيضا بقياداتها المتوارية البسيطة بين جماهير المخيم، بلا مكاتب، ولا تراتبية، ولا تركز في سلطة القرار.. وقدمت مثالا في الزهد النضالي أضعف ثقة المخيم بالشكل القديم لسلطة المنظمة. وقد لمست فقدان الثقة هذا وأنا أطرح على مواطنين في مخيم اليرموك سؤالا عما قدموه للانتفاضة. قالوا أنهم يريدون أن يتبرعوا لأهلهم في الداخل، لكن كيف؟ أسألهم: لم الحيرة هذه مكاتب المنظمة على بعد أمتار؟ فيكون الجواب حادا منفعلا: «مين عرفنا أن التبرعات توصل لأهلنا ومش للقادة ليركبوا سيارات المرسيدس ويكثروها؟» وقد خلقت الانتفاضة مزاجا حادا داخل المخيمات وفي علاقة الفلسطيني بمحيط اللجوء. أسأل أبناء الجيل الذي نشأ مع الانتفاضة عن مشاعرهم إزاء مشهد التلفزيون اليومي:

– أولا الشعور بالفخر، إنو شعبنا اللي في الداخل عمل بالحجارة ما عجزت

عنه الجيوش العربية كلياتها.

– كل يوم نشوف أخبار الانتفاضة، حتى ولو الصور تنعاد نفسها. لما يزتوا حجر نصيح بكل أعصابنا: حيل! وما أنسى أبدا لما شفت أهلنا في الجولان يضربوا جندي إسرائيلي على راسو. مرات ومرات شفنا الصورة، وكل مرة نصيح: إضرب! إضرب! نفرح لما نشوف جندي إسرائيلي متخبي من حجارة صبي. هذا الجندي اللي هزم العرب؟!

– لما نشوف جندي إسرائيلي يضرب مطران أو ختيارة، او يكسر ايدين الشبان المكتفين، نتلفت حوالينا ونصيح: وينكم ياعرب؟

– المكان ما بيوسعني، أضيق واختنق بدي أكون معهم، أزت حجر، أستشهد هناك أحسن ما ضلني هون بدون ما أعمل شي.

– في المدرسة صرنا نفاخر قدام صحابنا إنو ولاد بلدنا عملوا هيك وهيك. صحابي يقولوا لنا مين يسترجي يحكي معاكم، ولادكم يحاربوا العدو بالحجارة؟

– مشكلة! (صاحب مقهى) الولاد دمهم حار يتحمسوا كثير لما تطلع مشاهد الانتفاضة. يهيجوا أكثر من لعبة كورة: صياح وهتافات وأحيانا يشتموا الزعماء العرب. شغله. شفت؟ الأحسن أشيل التلفزيون وأخلص.

– في المدرسة (مدير مدرسة في مخيم) أصبح مزاجهم حادا. خلال الاصطفاف الصباحي بدهم يطلعوا مظاهرة. لو وقف أي واحد بوشهم يرفعوا الحجر.

– ولادنا (أم لأربعة أولاد) صاروا يلعبوا في الشارع فريقين: فريق متخبي ورا الحيطان وفريق يزت الحجر.

ما وراء الصـورة

الصورة هي ذاتها، تكاد لا تتغير على الرغم من اختلاف الأمكنة والزمان. طرفان للصورة يفصل بينهما خط مرسوم بأكوام الحجارة وهياكل السيارات والإطارات المحترقة وفوق الأرض الحرام. إنه الخط الذي وصفه إسحاق شامير «الفاصل بين قوميتين». عند هذا الخط تلتقي إرادتان متعارضتان تكللهما غيمة من دخان أسود ثقيل. كل إرادة تريد أن تصله أو تتجاوز الخط، وهي تدرك أن الموت ينتظرها مجسدا بالإرادة الأخرى. والزمن طوال فترة المجابهة متردد في المكان معلق على القيمة الاعتبارية للانتصار.

كبر الصبيان في جانب الصورة وغاب رفاق لهم تاركين صورا بأطر سوداء معلقة على جدران المخيم. ودخل إلى الساحة جيل جديد كان إلى الأمس يعيد تمثيل اللعبة في أزقة المخيم الخلفية. تغيرت الوجوه والأجيال في هذا الجانب، لكن صورتهم وحركاتهم، على الرغم من اختلاف التفاصيل وزاوية النظر، بقيت كما هي: يركض الشبان باتجاه خط المجابهة وقد قوسوا ظهورهم لتشغل أصغر حيز من الفراغ اتقاء للرصاص الباحث عن لحمهم، ثم تمتد أجسادهم ليقفزوا خفافا مودعين مع الحجر عقلهم وإرادتهم وقوة شبابهم ثم يعودون إلى المخيم عارفين دروبه ومخابئه وناسه.

الطرف الآخر من الصورة بقي كما هو أيضا. فالجنود الإسرائيليون ينقذفون من مصفحاتهم فجأة في الساحة العارية. بخوذهم المسدلة على وجوههم والدروع التي تحميهم ورشاشاتهم المسددة على الحشد يبدون بلا أسماء ولا حياة خاصة، كأنما وجدوا في اللحظة الطارئة ولتنفيذ الفعل الوحيد: إطلاق النار على مدنيين.

على خلاف ابن المخيم الذي يخبئ المصورين والصحافيين في بيته يترك المجند الإسرائيلي المعركة ويتقدم ليغلق العدسة بيده ليمنع تصوير وجهه: لا أحب أن تراني زوجتي وأولادي في هذا الموقع! هذه الصورة تريه ما لا يريد أن يراه، وهو أنه لبس خوذة جلاده وحمل سلاحه وأعاد تمثيل المشهد آخذا دور الآخر. الصورة تريه أن الأشياء التي كرهها طوال تاريخه قد حلت فيه: إنه المسلح الذي يطلق النار على ضحية عزلاء. ومشكلة هذا المجند هي أن المواجهة الحالية تختلف عن كل حروبه السابقة مع العرب. ففي كل تلك الحروب يأتي «العدو» أو يكمن خلف الحدود بطائراته ودباباته وفيالقه. ثمة نوع من التكافؤ في أدوات الدمار. ولذلك يتماهى المجند مع إحساس الدفاع عن الوجود في مقابل عدو (يريد أن يلقيه في البحر). حتى الهجوم والتوسع والعدوان كان جوابا على الخوف من الفناء يسميه موشي دايان «الهجوم الوقائي». في كل تلك الحروب قدم «العدو» نفسه التبرير الخلقي لمجند «جيش الدفاع الإسرائيلي».

اختلف الأمر تماما في هذه المواجهة، فـ «العدو» موجود في الداخل ويقيم على أرضه، حيث أقام الآباء في منازل الأجداد بلا انقطاع، في حين يتقدم الجنود الإسرائيليون إلى مكان غريب ينكرهم. لذلك يتحتم عليهم التصرف كغزاة، ينظرون للأرض التي يطأونها للمرة الأولى كمجال جغرافي بحت، وحين تصادفهم الحياة ستكون معادية بالضرورة وتنطوي على احتمال موت. بالحصار والتجويع يريدون جعل الحياة مستحيلة. ومع ذلك ينبغي تعطيل

هذه الحياة بإعلان منع التجول قبل الدخول، وحين يدخلون فبخطوات متصلبة حذرة من ملمس الأرض. الظهور لصق الحيطان التي لا حياة فيها، إذن فهي آمنة، والإصبع على الزناد، والفوهة تتحرك باتجاه الأزقة والنوافذ والسطوح، حيث يمكن أن توجد حياة، مستعدة لتحويل كل ما يتحرك إلى شيء لا حياة فيه. كل خطوة نحو المخيم هي خطوة انفصال ذاتي وموضوعي عن المكان الذي ينكرهم ويزيد غربتهم عن البيئة. هذا الانفصال يزيد مخاوفهم (من أية نافذة زجاجة حارقة، ومن أي سطح قد يسقط عليك حجر). ما من وسيلة للخلاص من الخوف في الداخل إلا بدفعه إلى الخارج لأن تطمين الذات يتطلب تحول الخائف مخيفا. لذلك يبدأ الغازي بتعريف نفسه عبر الضحية «أنا الذي أقتل!» فيطلق النار قبل أن يتقدم داخل المخيم، وقبل أن يقول كلمته. وإذا تكلم فقاموس مفرداته محدد: لا تتحرك! إرفع يديك! ابتعد من هنا! إفتح الباب! جمل قصيرة آمرة، لا تحاور ولا تسأل ولا تنتظر جوابا إنما تسبق أو ترافق إطلاق النار.

اختيار الضحية سيكون عشوائيا. مراسل الـ«بي بي سي» سأل الناطق باسم وزارة الدفاع الإسرائيلية عن مقتل الطفل محمد الدرة، لم يعتذر الناطق، إنما أعاد السؤال: ماذا يفعل طفل في ساحة مواجهة؟ وسيلة الغازي في الدفاع عن ذنوبه هي إلقاء اللوم على الضحية، على الأطفال الذين خرجوا من بيوتهم فعرضوا أنفسهم للرصاص، على الآباء الذين يجلسون في البيوت تاركين أولادهم في ساحات المواجهة، على المنظمة التي لم تعتقل شعبا مشاغبا. القتل العشوائي ليس عقابا على فعل محدد قام به شخص محدد، إنما هو عقاب على نية مفترضة، وهو فعل تحذير موجه لكل واحد، حتى وإن لم يأكل تفاحة الخطيئة: قد تكون الرصاصة القادمة من حصتك! ووفق مبدأ «الهجوم الوقائي»، لن يعود هناك خارجون عن القانون في المخيم الذي يدخله الغازي، إنما تصبح الحياة بحد ذاتها شكلا من المخالفة أو العدوانية المضمرة، لذلك يكون الحصار ومنع التجول والعقاب جماعيا دون تمييز.

وبما أن الحياة في المخيم مستهدفة بذاتها، فإن مقاومة المخيم للغازي ستستند على الحياة وحق الحياة. وتبدأ المقاومة من التمسك بالمكان. ومع ذلك لم يغرقوا في أوهام البيت. أجدادهم الفلاحون كانوا يشاهدون بيت جار لهم ينسف أو يصادر ويتصورونها حالة خاصة لا تعنيهم. لأبناء الجيل الذي نشأ في المخيم مع المنظمة والتنظيم يعني البيت الوطن.

قلت لبابا: هاي صورة مين؟

قال: لتكمل حتى تبين.

قلت: الريشة صارت عتيقة؟

قال لي: بقى لها زمان وسنين.

......

هالصورة صورة بلدي

اللي راح يكبر فيها ولدي

هلا عرفت الصورة لمين

هي صورة فلسطين!

هكذا تتشكل صورة الوطن في تنقل من المجاز الذهني إلى الملموس (البيت) ثم إلى المجاز العام (الوطن). البيت هو بيت الجماعة كلها وهو المخيم. المخيم نفسه يسهل الانتقال من الخاص إلى العام، فاقتحام الجنود يبدأ من لحظة وصولهم حافة المخيم. بعد اجتياز الخط المحدد بالإطارات والحجارة تصبح البيوت مباحة ومستباحة للغازي لأن غرف النوم تطل على الزقاق مباشرة ولا يفصلها عنه إلا أبواب من الصفيح تفتح برفسة. وقد أدرك الأبناء منذ الطفولة معنى وواقع دخول الجنود. ففي تلك الغرف التي يحبس فيها الأطفال، كل ثمانية في غرفة واحدة، أثناء منع التجول، يتسمعون بقلوب وجلة ووجوه شاحبة إلى بساطير الجنود وهي تضرب أرض الزقاق.. تقترب، تقترب،

فيأمرهم الآباء بأن يكفوا عن الكلام لأن الجنود يعتبرون الضجيج دليل حياة واحتمال مقاومة. وربما كان الهدف من منع التجول تفتيت الحياة الجماعية في المخيم إلى حيوات عائلية منطوية على مخاوف فردية.

عاش الأبناء الخوف من الاقتحام حتى ثمالته، حتى أن كلمة «إسرائيلي» تعني تلقائيا الجندي الذي يرفس الباب ويقتحم البيت في لحظات الغفلة والهدوء النادرة. يبدأ بالصراخ بلا سبب مهددا الجميع ببندقية محشوة جاهزة للإطلاق. يدوس فرش النوم ويزيح الغطاء عن زوجين في أكثر اللحظات خصوصية، يخلع أبواب الدواليب ويضرب الأب بأخمص البندقية غير عابئ بتوسل الزوجات وصراخ الأطفال. وبعد ذلك يأخذ الأب والأخ إلى حيث لن يعودوا. هذه المشاهد المفزعة غرزت في أذهان الأطفال وفي أحلامهم اليومية. الدكتور يورام بيلو أستاذ علم النفس في الجامعة العبرية طلب من أطفال مخيم قلنديا أن يسجلوا أربعة أحلام رأوها قبل نهوضهم من النوم فوجد أن أغلبها يدور حول اقتحام الجنود الإسرائيليين للبيت: «حاصروا بيتنا واقتحموه، وسحبوا أخي وأخذوه إلى السجن وعذبوه، واختبأنا أنا وأبي في خزانة الملابس حتى عاد الجنود ومعهم خائن وعثروا علينا». هذا الخوف يتكرر في النهار فتتقلص أجسام الأطفال حين تقترب السيارة من حاجز التفتيش. عند هذه الحواجز ينزل الآباء ويؤمرون بخلع ملابسهم للتفتيش ويصطفون رافعين أيديهم فوق رؤوسهم ووجوههم إلى الحائط والفوهات مسددة نحوهم، ومن هذه الحواجز يؤخذ الآباء والأخوة إلى السجون.

الخوف كان المعلم الأول لهذا الصبي الذي يحمل الحجر. أول تمرين للتغلب على الخوف يبدأ في الأزقة الخلفية حيث يجتمع الأطفال في هيكل سيارة محطمة لينظموا الخطط، ثم يغادرون مكمنهم لينقسموا فريقين: فريق الجنود من لابسي الطناجر، وفريق الملثمين رماة الحجارة. وفي أزقة المخيم الخلفية يمثلون لعبة الكبار ليتغلبوا على خوفهم قبل أن يكبروا. الخوف الذي علم

المحارب المحترف الدرع والخندق والمتراس سيعلم حامل الحجر في المخيم الخطوة العملية الأولى في المقاومة: أن يستغل كل مرونة جسده ليناور الرصاصة التي تتجه نحوه أو إعادة إلقاء قنبلة الغاز نحو راميها. وقد وجد أبناء هذا الجيل، الذي ولد ونشأ في المخيم، أن أزقته الضيقة هي الخندق والدرع الذي يحتمي فيه الأعزل من غاز يملك السلاح، لكنه يجهل المكان. وترينا صورة المطاردة اليومية أن حافة المخيم هي حافة الأمان لحامل الحجر وحافة الموت للغازي لذلك يكمل الرصاص المطاردة. بعد الخوف ومعه يبدأ السخط صامتا، يأكل من نفسه ويغذيها. الجنود الإسرائيليون يرونه في العيون ويدرون أنه قد ينفجر في غفلة عنهم، لذلك يستفزون سكان المخيم لإخراجه للعلن. طابور العابرين الذاهبين إلى العمل أو المدرسة صباح كل يوم هو المكان الذي يصل فيه السخط ذروته صامتا وهو يصك الأسنان، مدمدما أو مبربرا. في الحاجز يتعلم الجنود الإسرائيليون فنون الاستفزاز، وهم يتفرجون على عذاب الناس في الطابور بتعال وسخرية: يشحطون كلماتهم العربية القليلة: أسكت، قف، تقدم، التالي...! سيتمادى الجنود حين يستعصي عليهم الصمت ويطلبون من الرجال أن يخلعوا ملابسهم في عرض الشارع. أمام السجن، وفي أيام المواجهة سيضربون أهالي المعتقلين. السخط يتحول إلى شماتة بالنفس لأنها أعجز من أن ترد، ولكنه الوقود الذي سيغذي أكثر الأعمال تطرفا. حتى الذين يستنكرون السيارات المتفجرة، سيبررون هذا الجنون في تلك اللحظات. وحين يمنعهم الجنود من دخول الجامع للصلاة سيتمنون لو كان الحزام الناسف مربوطا الآن حول صدورهم في لحظات الغليان الموشكة على الانفجار.

الأبناء الذين رأوا بما فيه الكفاية كيف يذل الآباء، حتى وهم صامتون يحولون هذا السخط إلى مقاومة. ويملك أبناء هذا الجيل امتيازا معنويا على آبائهم وأجدادهم، وهو إحساس بأنهم لم يذلوا على يد عدوهم. طوردوا مرارا وافلتوا، أصيبوا بالرصاص، اعتقلوا وعذبوا، لكنهم رغم ذلك لم يذلوا. وبهذا الإحساس يعتقدون، وهم يقذفون الحجر، أنهم قادرون على إعادة كرامة الآباء

المهدورة. في واحدة من أغانيهم يخاطبون الآباء:

يلله يا ختياريه

لا تقولوا القامة محنية

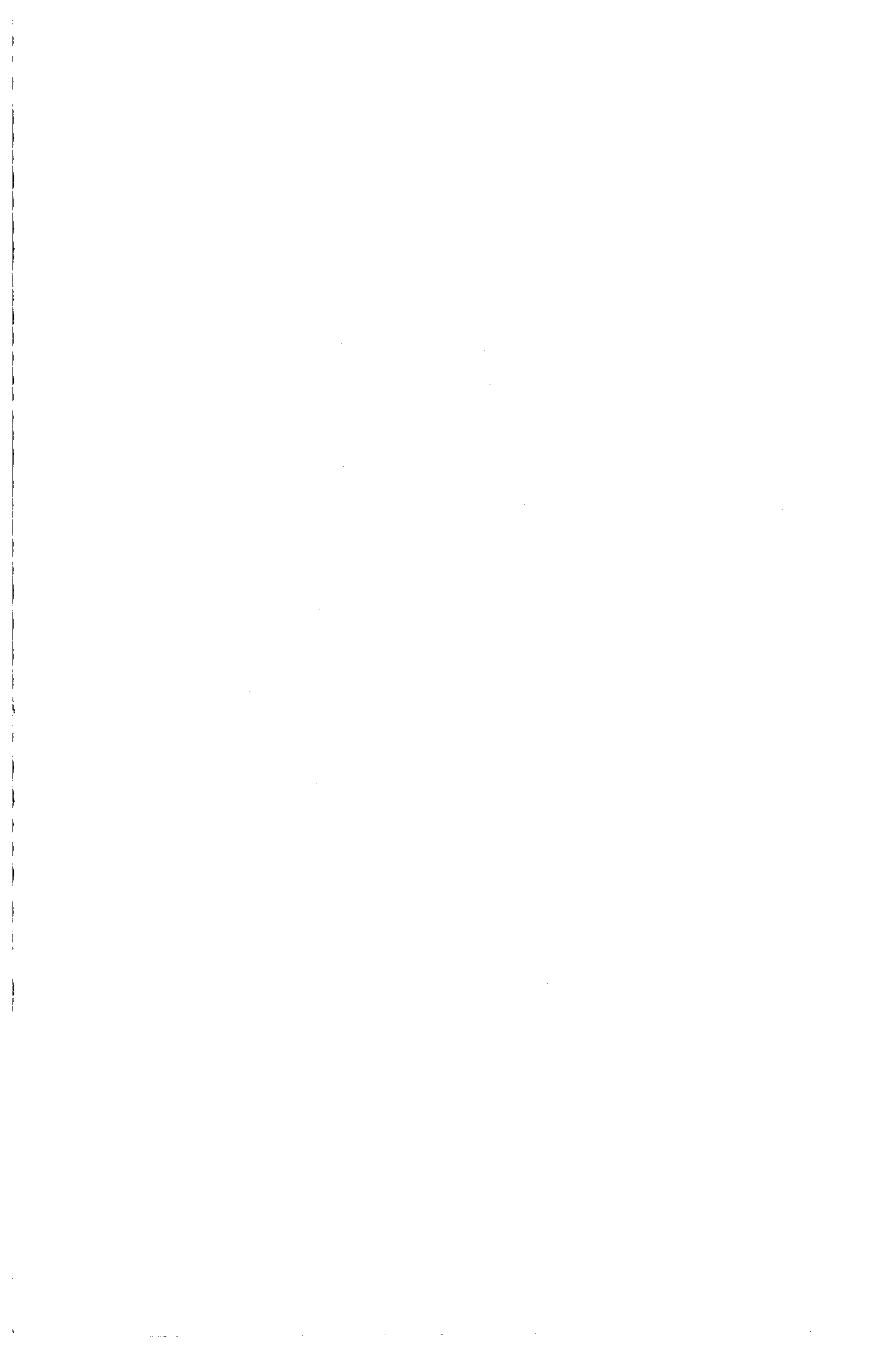
كل واحد يعطي مقدوره!

كل الأجيال السابقة إزاء جيل الانتفاضة مثقلة بالهزائم والأخطاء: الأجداد متهمون بأنهم تركوا الأرض وبددوا وقتا (من ١٩٤٨-١٩٦٨) بانتظار الفرج من الأنظمة القومية الصراخة، أو من الجيوش العربية النظامية. الآباء متهمون بأنهم نقلوا أمراض الأنظمة الى الثورة وأغرقوها بالمكتبية المفسدة. إنهم الجيل الوحيد الذي لم يهزم ولم يكن شريكا في الأخطاء. وخلال المقاومة لا يتصدى هذا الجيل للاحتلال وحده، إنما أيضا للأجيال السابقة من القادة التقليديين من الوجهاء وشيوخ العشائر والرجال الروحيين الذين اعتادوا الوصول إلى حلول وسط. سلطات الاحتلال نفسها ستسفه موقف المهدئين، فقد روت جيهان عيسى من بلدة بيت ساحور لمراسل التايمز أيان موراي: «إنه لأمر مضحك فالناس هنا غاضبون من شقيقي لأنه ضد العنف ويريد أن يكون كل شيء بصورة مشروعة، ومع ذلك اعتقله الإسرائيليون!» أماني العقلاء تكشفت على خلفية تعصب غاز يفضل معاملة الآخر كقطاع بشري واحد مشبوه. المطاردات وقنابل الغاز كلها تضيق موقع الشيوخ الوقورين محسوبي الخطوات في المظاهرات الحالية ويحل محلهم الشبان الصداميون الملثمون الخفاف الحركة الذين يجمعون دهاء صبية الأزقة وأساليب المحاربين المحترفين في معارك الكر والفر: «لا يهمنا الوقت الذي يأتي فيه الجيش»، قال أسامه نجم (٢٣ سنة) لمراسل التايمز، «ففي أي وقت يأتون نخرج ونبدأ بمواجهتهم».

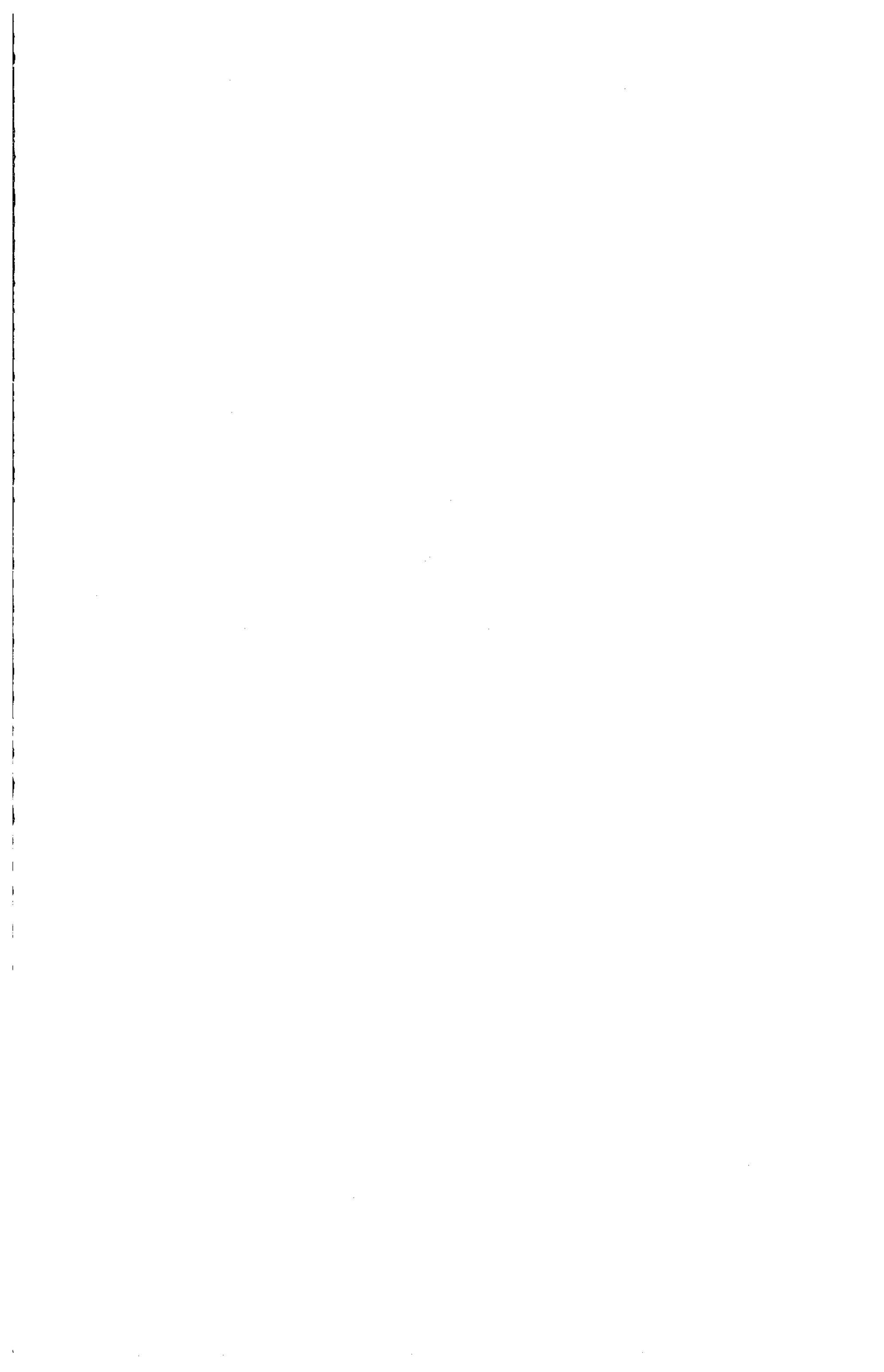
وعندما تتحول المقاومة إلى حياة يومية على الحافة تتحول الحياة العادية إلى مقاومة: فالعقل الجمعي والذكاء الشعبي سيجدان أساليب لا تحد لمواجهة

الحصار والتجويع: تخزين الطعام وزراعة المساحات المتروكة. وخلال ذلك ستتراجع الكراهية العاجزة أمام المقاومة القائمة على الندية: محارب في مواجهة محارب، مفاوض في مواجهة مفاوض، سلطة احتلال في مواجهة سلطة المخيم.

لم تتعلم سلطة المخيم السياسة من حكمة الأجداد، ولا من الكتب والنظريات المسبقة. قبل ذلك تعلمتها من المواجهة اليومية. هذه المعرفة الملموسة أعطتها قدرة التكيف حسب التوازن بين قواها وقوى العدو في لحظة محددة من الزمان. قد يكون التطرف والجزع الذي يتحول أفعالا، بعضا من ردود الفعل على عنف العدو، لكن الحياة اليومية المتوترة الغزيرة بالمفاجآت تعلم خبرة سنوات. وسلطة المخيم بسيطة خفيفة، بلا مكاتب ولا مراتب. المسافة بين القرار والتنفيذ عندها هي المسافة بين الرأس الذي يسدد واليد التي تقذف الحجر. ولذلك فهي قادرة على ما سماه محمود درويش «تكييف الإرادة الإنسانية مع شروط نشاطها». المفاوض والمقاتل يتكاملان دون تعارض ما دام هناك قاسم واضح وملموس للمفاوضين وللناس الذين يجري التفاوض باسمهم، وهو القضية التي تنعكس في أبسط تضاريس الحياة اليومية. وما دامت هذه القضية غير محلولة في بعدها الشامل، ستبقى أبسط متطلبات الحياة مثل العمل والخبز والجلوس على مقعد الدراسة أمرا طارئا ومعطلا. لذلك تبقى الصورة، على الرغم من كل المفاوضات، كما هي: جنود بخوذ حديدية يطلقون النار على المكان والزمان، يقابلهم شبان ملثمون يحاولون بالحجارة أن يفتحوا في الحصار ثغرة نحو الحياة، وبين الاثنين ركام من أشياء محترقة أو ميتة، وفوقهم فضاء مغلق بدخان أسود خانق.



قاموس الحرب



في غرف العمليات رجال ذوو قلوب حديدية مجبولة على مشاهد الموت العريضة، يستعيضون بالتجريد عن التفاصيل الحية. فالأرض التي ستشهد الحرب تصبح خارطة على طاولة، ومساحب الدم في الكر والفر تجرد إلى سهام كالمسامير، وشوارع الزلازل إلى خطوط حمر. في هذه الغرف توضع مفردات الحرب القصيرة التي تريد أن تغنينا عن المشهد الذي رأيناه وعشناه. من دفتري الضائع في التجريد، أحاول أن أرى هذه الكلمات من الجانب الذي لا يراه رجال الخرائط، وأعطيها لحماً ولوناً وصوتاً.

نفير عام

تعثرت الكلمات بين المتفاوضين حين عجزت عن إلغاء بعضها، وتحتم على المدافع أن تقول كلماتها. وفي غرف القرار تقلّصت الجمل إلى مبتدأ وخبر أو فعل ومفعول به. جمل آمرة تُعْلِمُ أجساداً هيأتها العادة للتنفيذ.

لم نسمع الصوت الأجش البارد الذي أمر المدافع أن تدوي، ولم نر الفارس الذي يقطع السهوب لينذرنا: نفير عام! فقد استحال هذا إلى رموز مشفرة تعبر نوافذنا من دون أن تنقر الزجاج أو تزيح الستائر، ومن دون أن تكسر عادات البيت المستغفل بحيل الحياة. مأثرة الحرب الجديدة هي المباغتة، وسر انتصارها أن تأخذ الحياة على غفلة.

مع الإيعاز الأول نفضت المدافع أغطيتها الثقيلة، وبدأت أولى القذائف ترج السكون الذي أغوانا، ومعها نهضت ذاكرة ومخيلة تتصل بالموت المختفي فينا. بدأنا نتحسس بلحم ظهورنا ملمس الحديد الذي سيقتلنا ونرى مقتل الضحايا الأول.

الأطفال لم يأكلوا تفاحة الخطيئة ويجهلون مصادر الخطر. إليهم اتجه خيال الأم التي صرخت حال سقوط القذيفة: «أولادي!» قبل أن تعرف مصدرها واتجاهها. وفي الطريق القصير بين سوق الخضار والبيت ينبض الزمن مثل قلب موعود بفاجعة، فتتعثر الخطوات بصور متشظية: جسد لين يلبط على بلاط البيت، يد دامية ترفع كتلة من الصخر، ضفيرتان تجرهما الريح واللهب، ملجأ يتصدع سقفه وجدار يميد في شارع الزلزال. صور لا تترك مجالاً للتمثل واستدعاء الخبرة.

وعلى غريزة الحرب ظهرت بضائع الحرب المشؤومة إلى الواجهات: لفافات الجراح وقناني اليود التي تحفظ مع الدم حرارة تكفي لاستئناف الحياة، الحبوب المهدئة للآلام، الشموع التي تكشف في ظلمة الحرب ومجاهيلها الواسعة بقعة مضاءة تبدو الأشياء القريبة فيها مؤكدة وحقيقية، الشرائط اللاصقة المثبتة للزجاج الذي قد ينقل إلى داخل البيت بريق الانفجار القريب، أربطة العنق السوداء وأكاليل الموتى. لقد عرف الباعة بفراستهم الممتحنة ما يغري الناس في حياة طارئة.

حتى المقاتلون المدججون بالرصاص والقنابل، لم يستبشروا بخيار الحرب اليائس. ففي الهدنة استيقظ خيار الحياة وأحابيلها، وأصبحت لهم حبيبات حالما نبت الزغب تحت أنوفهم، وصارت لهم أطماع ولذائذ خارج ساحة الحرب...

لذلك، عصرت الحرب المقبلة قلوبهم باحتمالات لا يريدون تصورها ولا تسميتها. ولكنهم يبددون الأسئلة والتردد بسرعة الأفعال... من البيوت إلى الثكنات ليستبدلوا مع الملابس حياة بـ «حياة؟»... يشدون أحزمة العدة وجعب السلاح. كل شيء إلا الجسد الذي سيكون ساحة الإمتحان وموضوعه. وفي الأزقة الغافلة فتحت أقبية متوارية، منها نقل المقاتلون صناديق الذخيرة النائمة منذ زمن إلى خطوط التماس. هناك سيتحول القلق إلى فعالية والخوف إلى حماس. فخيال المقاتل يتوقف حين يطابق الفرضة والشعيرة. لقد أصبح جزءاً من الحرب، يطلق الرصاصة ويلعنها، ويهرب من الحرب، ولكن باتجاهها.

خط التماس

من الجبل، وفي هدأة ما قبل الانفجار، يبدو خط التماس مثل نهر أسود له سكون الأسطورة ورهبتها وسط حقلين من الماس البراق. فجأة تتفجر على جانبيه نجيمات مكفهرة تنطفئ بسرعة ثم تتخطط السماء فوقه كأنها شطبت بعود كبريت. وفي الجانب الآخر دوائر من ضوء يتسع ثم يتلاشى. عبر هذا النهر تعبر القذائف من فوهة السبطانة إلى الحياة التي ينبغي أن تهدّ. وعندما تهدأ الرماية يتوضح هذا الخط الصارم الذي يفصل الأحياء عن الأموات ويتواجه عنده القاتل والقتيل. وفي الهدنة التي تسبق الهجوم تشتعل الأسئلة على جانبيه:

– ماذا هناك؟

– ما الذي يبيتونه عند تلك البناية ووراء الشجرة الوحيدة؟

– وماذا تقول هذه الرصاصات الخُلبية الثلاث؟

– ولِمَ قذيفة التنوير هذه؟

... أسئلة وأسئلة ولا أحد يعرف بالضبط. ويبدو الانتظار مشحوناً بالوساوس والأصوات الهامسة المتآمرة والطعنات المتخفية في الظلمة. ولذلك، يذهب الحدس قبل الجسد، يريد أن يعرف شكل الغدر الكامن هناك، وتلوب الأجسام، تريد أن تقفز من خنادقها لتختصر زمن الانتظار المقيت لتقطع الآن هذا الخط الذي لا بد أن تقطعه عاجلاً أو آجلاً. يريد الحدس قبل العين أن يعرف ماذا يوجد هناك وهو مدرك تماماً ماذا يوجد... لا شيء غير الموت.

عبرت هذا الشارع الضيق، قفزت ورأسي مغروز كمسمار بين كتفين مقوستين ووقفت في شرفة فندق دار القتال فيه من طابق إلى طابق، وعبرت أكداساً من المتاريس في ممراته، ودخلت نفقاً يوصل هذه البنايات فُتح بالصواريخ. أردت من هذا المكان العالي أن أسترجع الصورة القديمة التي عرفتها عن هذا المكان: الصيارفة النشطون وهم ينادون السياح، الأسواق التي تخلق مهرجاناً من ألوان البضائع، نساء الليل الواقفات عند الأبواب، والبارات الليلية الواطئة... أية بناية كانت هذا العمود المتفحم الواقف كجثة تنتظر رصاصة الرحمة، وأية سوق هذا التجويف الأسود الشبيه بفوهة منجم؟

هيهات لك أن تعرف!

أمد بصري حتى نهاية الشارع المليء بحجارة وكتل تبحث عن معنى لوجودها العاري، سائلاً في أي كهف من هذا الكوكب المحترق اختفت تلك المغناج اليونانية التي ترفع كأسها وتغمز بعين واحدة، وهي تحيي القادم بتلك الجملة العربية الوحيدة التي تحفظها: «مالو الجميل سرحان؟»... لن يأتي حتى خيالها في هذا الشارع الذي هزه الزلزال وصفرت الريح في فراغه، ومن نهايته يدب كلب نحيل أعرج، ترك أصحابه ولاءً للمكان، يتشمم الزوايا والكتل المشبوهة بحثاً عن شيء محير. انه علامة الحياة الوحيدة في شارع لا يمر فيه إلا الموت.

في مساحة الموت المرصودة بعيون القناصين والمزروعة أرضها بالألغام المنسية، وبين الهياكل السود مرتع سري للشهوات، دار سينما اكتشف صاحبها أن مجاورة الخطر تبعث مع الموت احساساً بالشهوة يشبه التوهج الحاد الذي يسبق الانطفاء.. إلى هذه الدار يأتي المقاتلون وقد ملّوا انتظار الموت خلف المتاريس، يقطعون الأزقة وظهورهم لصق الجدران وبينهم ما يشبه الاتفاق على هدنة لذة بين القتل والقتل. ومع مواعيد الحراسة يعاد الفيلم نفسه عن نساء مسعورات من كوكب بعيد يخطفن رجالاً من الأرض يحولنهم إلى خمائر لذة تسبق القتل. تهتز كل كراسي السينما مع مشهد الذروة في ذلك البلاط الغريب،

وينسى الجميع ما وراء جدران هذه السينما، وعبر عظام الجسد تصل أصوات الانفجارات المكتومة على الجانبين فيحمل المقاتلون أسلحتهم ويتسللون تحت الظلمة إلى جانبي خط التماس، حيث يكون الواحد قاتلاً أو قتيلاً.

متاريس

في زمن قياسي تتمدد المتاريس وترتفع فتحول المدينة إلى ثكنة. يكفي أن توضع أكياس من الرمل أمام أحد المقرات حتى يتأكد الناس أن الحرب لم تعد خياراً بين الخيارات، بل تأكيد وتشييد. ومن خبرة الحروب السابقة تعلم الناس فولكلور المتاريس؛ تذهب الشاحنات وسيارات الشحن الصغيرة إلى الساحل، بينما تأكل الحفارات بأسنانها الحديدية القاسية رمال الشاطئ الناعمة وتعبئها في أكياس من الخيش لتغطي بيوت المدينة المهددة. هذه الأكياس القبيحة كجثث مقطعة ستؤسس في شوارعنا هندسة جديدة، هندسة الثكنة الصحراوية.

خلال يومين تغيرت معالم المدينة تماماً.

غطت أكياس الرمال النوفوتية الذي يبيع ملابس النوم النسائية الشفافة ومحل البوظة الذي يشيع الرطوبة والبرودة في الشارع والفواكه الملمعة المصفوفة عند بائع العصير.

غابت عنا الزهور الهولندية وبائعتها الشقراء خلف جدار من الأكياس عليه لافتة بخط أحمر رديء «هنا تباع الزهور» كأنها كلمة رثاء. وبين جلاّس المقهى المددين بارتخاء، وبين المراهقات العابرات اللواتي يتلمسن بأجسادهن نظرات الرجال الشرهة، قام جدار جهم لا نافذة فيه يجعل كل طرف ملغىً في خيال الآخر. ومن وراء أكياس الرمل تتسرب من محل بيع التسجيلات أغنية «ميراي ماتيو» مثل نداء استغاثة من حضارة توشك أن تلفظ أنفاسها تحت أكياس الرمل. ألغت هذه الأكياس الألوان وتدرج السطوح وبهجة البضائع.

خلال أيام قليلة ألفت عيوننا هذا المظهر الجهم وغابت من ذاكرتنا تماماً ألوان الحياة وغواياتها. وما هم أن تكون الأشياء زرقاء أو حمراء أو موردة؟ المهم أن تعيش فينا وأن نبقى أحياء. وإزاء القذائف المتشظية التي تصيب الغرف الأمامية والبلكونات وأبواب البيوت يحاول الناس بأكياس الرمال توسيع احتمال الحياة ساعات أكثر. لذلك، تصبح أكياس الرمل الديكور الأكثر ألفة لحياة تحاصرها الشظايا.

قصف عشوائي

هو الشكل الأمثل لتحويل الحياة إلى محض صدفة. لا يستهدف القصف العشوائي أحداً بالتحديد، أي أنه يستهدف الجميع سواسية.

وتقوم إحداثيات الرماية على تقسيم المساحة المستهدفة إلى مربعات مجردة لا مكان فيها للتفاصيل، ولا لملامح الناس الغافلين في هذه المربعات. وبعد ذلك سيكون الأمر غاية في البساطة: أن يترك الرامي قذيفته تنزلق داخل السبطانة لتمس إبرة التفجير. وعليه آنذاك أن يغمض عينيه ويغلق أذنيه لينفصل تماماً عما سيحدث فيما بعد. بعد هبدة الانفجار الأول تأتي فراشة الحديد، تصفر بحدّةٍ وهي تفرم الهواء قاطعة بأجنحتها ومجساتها المديات: عبر القطوع الحجرية الواقفة بوجه السماء مثل تماثيل القدر، والمناطق المهجورة التي توقف الدخان في مداخنها، عبر المقابر التي اقتلعت شاهداتها ويدب فيها شيخ عجوز جاور قبره، تتسمعها كلاب مقطوعة الأجل حائرة وسط حقول الألغام. تنحني القذيفة العشوائية حين تقترب من حرش الصنوبر فيتابعها الراعي الوحيد تاركاً عنزاته الذاهلات. تتقوس القذيفة نحونا وقد جرح صفيرها الفراغ وأعطانا إحساساً بهشاشة الأرض تحتنا وصلابة الجدران التي التصقت بها ظهورنا الباحثة عن ملجأ. تلتقي عيوننا في لحظة قبل الانفجار: تساؤل، توسل، وداع...

في لحظة تسبق العشاء كنت أعدّ السَلَطة بينما تراقب زوجتي القِدْر، بتلك الحركات الغافلة، اهتزت البناية، ومعها نحن. فقدنا الأشياء التي بأيدينا، فقدنا أفعالنا وحركاتنا وطرنا قليلاً في رجّة الانفجار وفقدنا الأرض التي كانت تحملنا، ومعها الاتجاهات. أول ما فعلته حين صحوت، قفزت نحو

أطفالي ودفعتهم إلى ممر بين جدارين. وأنا منحن خطفني بريق الانفجار في البناية المقابلة، وانفجر شلال من الزجاج، عكس في لحظة انفجاره تفاصيل الحياة التي اهتزت في تلك البناية. وفي هدأة بين انفجارين صعد صراخ يشبه عويل الآخرة. بأجسادنا المتلاصقة كنّا نتحسس الانفجار القادم في بنايتنا بالتحديد، لكن القذيفة سقطت في الشارع التالي، فاستردنا أنفاسنا ولون وجوهنا ولسان واحد يقول: نجونا هذه المرة!

قذيفة هنا وأخرى هناك، وعلى الخيال أن يردم المسافة بين القذيفة والقذيفة، وبين الجثة والجثة. وبذلك تصبح الحياة موتاً ماثلاً في كل لحظة وبقعة. إذا أصابت جداراً في غرفة نوم، ستترك أسنانها الحديدية في كل أسرّة نومنا، وفي لحم نسائنا. وتصبح الجدران هشة تصطك من ملمس قطع الحديد المسننة. وإذا قتلت القذيفة العشوائية واحداً في شارعنا ستفعل فعلها في مخيلة الناس فينظرون لأنفسهم كمصادفة عابرة.

الشوارع خلت تماماً بعد سيل القذائف العشوائية، غاب الباعة وعرباتهم، غاب الحراس المدخنون في الظلمة، غابت النساء عن واجهات المحلات، غابت الواجهات خلف المتاريس، وأخذ الناس يعبرون مثل كائنات عجولة في مدينة استوطنها الطاعون. الموت وحده يدب في شوارعنا مثل هذا العجوز النحيل الطويل الذي يطرق إسفلت الشارع بعكازه غاضباً منّا نحن الصغار الذين هزهم الخوف من فعل الإنسان:

– تهربون من المقسوم، أين ستذهبون من غضب الله؟ من أين لنا إيمانه بالآخرة، نحن، الذين ختمت الحياة الحاضرة كل خيالهم؟

في هدأة ما بين القذيفة والقذيفة حاولنا توسيع فرص الحياة. بحثنا عن زاوية نحشر فيها مع وسائدنا وشموعنا والمذياع الذي يقول لنا ما حدث وسيحدث حول هذه الزاوية. وعلى ضوء ذلك بدأنا نرسم الخطوط الحمر ومساحات

الأمان حولنا: هذه العمارة قاتلة، علينا أن ننتقل للبناية التي تحتمي بها. في البناية الآمنة بقيت الطوابق العليا مكشوفة للقذائف العشوائية. كل الغرف المطلة على الشوارع والغرف المطلة على الباحات. لم يبق لنا إلا قاع البناية وسلالمها.. هذا هو الحيز المتاح للنجاة من القذائف العشوائية.

في حرب القذائف العشوائية لا يموت الأبطال المنذورون للحرب، إنما الناس الذين يكرهون السياسة وحروبها. من حرصهم الملح على الحياة وهروبهم المضطرب من مكان إلى آخر يعرضون أنفسهم للشظايا الباحثة عن لحم آدمي. الصيدلّي المريض بنظافة وترتيب ما حوله أغلق باب البيت بعد القذيفة الأولى باحثاً عن موقع أمين في الجبل. حشر كل أطفاله وزوجته في السيارة وهو يصرخ مربكاً نفسه بحركات لا ضرورة لها غير تبديد الخوف. آخر ما نسيه مفتاح السيارة. عندما غادر البيت للمرة الأخيرة مترنحاً من هزة الانفجار لم يجد ما يفتحه.. ففي مكان السيارة تويج أسود غائر في الأرض تناثرت حوله أوراق أولاده. كانت هذه صدفة، صدفة محضة، لأن رامي القذائف العشوائية محارب لاهٍ يجهل عواقب أفعاله، لا يحتاج الشجاعة أو البراعة، إنما العمى وصلابة القلب. على خارطة إحداثياته بقعة من ورق، وأمام لوحة التسديد غمامة وخيال يرفض التفاصيل الحية: لا المدرسة الضاجة بصراخ الأطفال ومعلماتهم، ولا بحرة الماء التي تعكس وجه الشيخ المتوضئ، ولا العاشقة المتمنعة في شرفة أمام عاشقها. ما هم ذلك؟ المهم المساحة كما هي مرسومة على الخارطة.. عليها سيركز بصيرته بينما تتحرك يداه بين السبطانة وإبرة التفجير وانزلاق القذيفة ثم... سيضيع كل شيء بعد ذلك في عصف مدوخ يطيّر الأوراق من أغصانها، والثياب من حبالها، ويرجّ المكان والمخيلة.

هدوء حذر

بعد اشتباك عنيف تتوقف المدافع فجأةً وتنسحب آخر الصليات.. ثمة نداء مسَّ المواقع واحداً واحداً: هدنة! هدنة! هدنة!... بعد ذلك الهدير المرعب وأزيز الشظايا التي قطّعت الهواء والرصاص الذي ثقّبْ كل شيء، يحل صمتٌ لا مثيل له: تسمعه وتكاد تلمسه.. ويخرج الناس متسللين من ظلمة الملاجئ فيكتشفون ويا للمفاجأة: ما تزال هناك حياة! يتقدمون نحو عالم الضوء بخطوات حذرة ليسرقوا حياة ما عادت لهم. وتبدو الأشياء، بعد ذاك الصرع والغياب وكأنها تولد الآن... هذه الشجرة التي كانت منذ زمن أمام باب البيت، والبيت المقابل مضحك كبطن حامل، والمكان الدال الذي تركه الأصيص الذي انقذف بعيداً... وفي الوجوه التي ألِفناها تجاعيد وزوايا لم نرها من قبل... السماء التي ولدنا تحتها ترفل بأشكال لا تحد من نجوم ومجرات، والهدوء الغريب الذي تكاد تسمع فيه صوت النبتة وهي تنمو في الأصيص... أبسط ما في الحياة يأتينا كهدية ثمينة... وفي حقيقة الأمر، فإن فرح الأشياء هو من فرح الحياة التي استعدناها من القبر.

لكم يبدو لعوباً طَرِباً صوت بائع بطاقات اليانصيب وهو يدشن الصمت بأول النداءات: نُص مليون!.. ومعه الراديو يتحدث عنّا بالذات، عن مصائرنا الصغيرة حين يعلن توصل الفرقاء إلى هدنة... وتظهر في الشارع من زاوية ما أول عربة خضار. لكم تبدو الخضار، وسط كتل الحجارة طرية لماعة! ويتقدم أول الشارين.. ويجذب الناسُ الناس نحو وهم الأمان. يريدون أن يغمروا أرواحهم بنعم الهدنة التي لم يقدروها من قبل، ناسين أو متناسين هذه الجدران والبيوت

التي بقرت بطونها، وسيارات الإسعاف بعويلها المشؤوم تنقل الجرحى والقتلى... كأن كل ذلك يمتُّ لزمن آخر كانت فيه حرب. يتمسكون بهذه الهدنة المؤقتة ويحل عليهم وهم الأمان. ويتمسكون بالحياة حتى أن أية رصاصة فالتة تفزعهم خوفاً من أن تكسر زجاج السلام الهشّ.

قنّاص

دون كل المتقاتلين يعرف القنّاص ضحيته. كلهم يضربون موقعاً أو يغطّون بالرصاص قطاعاً فلا يرون قتيلهم إلا بصفته جزءاً من كتلة. القناص وحده يتلصص، من ثقب التسديد على أفعال ضحيته كما يسرق المراهق المكبوت غفلات جارته... لا يحتاج القناص كثيراً من الكراهية أو الحماس وهو يمارس حرفته... فموقعه العالي يعطيه التسلط على أفعال الناس الذين يعبرون الشارع بارتباك أو في غفلة.. وقد يبتسم ساخراً من الأفعال الساهية للعابر المكشوف الذي يجهل أنه مرصود من فوق، وأن عين قناص وفوهة بندقية تتابع خطواته.. ولا يحتاج القناص، عكس كل المقاتلين، لجسد مرن معدٍّ للقفز والانقضاض. إنه قاتل كسول لا يحتاج من كل جسده غير السبابة وعين واحدة. والزمن عنده متخثر في المكان الواحد الثابت، ولذلك، يغالب الملل بعلب البيرة والمخدرات. وعليه أن يطيل باله ويتحصن بالصبر وهو يراقب الشارع الممتد أمامه وقد عطلت الحياة فيه فوّهة قناص.. يراقب بتوتر المراهق المكبوت أن يخترق فراغ الشارع جسم متحرك.. يتلفت قلقاً ثم يعبر قافزاً مسافة الموت القصيرة. على القناص آنذاك، وقد جهز الرصاصة في بيت النار، أن يجعل الموت أسرع.

في البداية يتعجل القناص وهو يطلق النار مسرعاً ليقطع الطريق على اعتراض الإنسان الكامن فيه. وقد تأتيه الضحية في الحلم نازفة صامتة تقلق هدأة روحه. وقد يستدعي كل كراهيته ويقول «عدو» بملء فمه ويبصقها كما الثمالة المرّة. ويسرب الكراهية من عقله إلى قلبه عبر عظام الكتف حتى السبابة الملتفة على الزناد. ليس الأمر سهلاً كما القتال وجهاً لوجه حيث الواحد قاتل أو قتيل. فالقتيل هنا أجهل الناس بفنون الحرب وأكثرهم غفلة عن خباياها

الغادرة: عجوز أعماها القلق على الأحفاد عن إدراك الخطر الذي يترصدها، أو طفل شارد لا يعرف قراءة: «إحذر قنّاص!»

سترفُّ الأهداب كثيراً ويخفق القلب وترتعش اليد في التجارب الأولى... ثم يكتشف القناص أن الأمر يسير أكثر مما تخيّل: يتطلب ضبط النفس ودقة التصويب وقلباً صلباً ويداً ثابتة على الزناد وقراراً لا تردد فيه: «هذا العابر يجب أن يموت»... ورصاصة وربما ثانية إذا أراد الجريح أن يجرّ ساقه إلى جانب الحياة القريب على مبعدة خطوات...

وهو يحكم بندقيته سيجمّد القناص الزمن وينحي كل تلك المشاهد والأصوات التي تربك التركيز: زمامير السيارات وأصوات المؤذنين وتلك الشراشف البيض التي تخفق على حبالها والنوارس المعلقة فوق نقطة هائمة.. عليه أن يرى العالم كله في دائرة يقطعها صليب وأن يتابع خطوة خطوة هذا العابر من الظل إلى مستطيل الشمس. . خطوة واحدة أخرى وتصبح هذه الأعماق الجياشة مجرد جثّة ملقاة في عرض الشارع! لا يدل على الحياة التي كانت فيها غير خيط طويل من الدم.

عبوّة

أمام شرفتي فراغ يسدّ رؤية النوافذ المقابلة التي تحوي عينات الحياة المنزلية الأليفة: السيدة البدينة التي تتلفت يسرة ثم يمنة وهي تنشر الغسيل، المراهقة التي فتحت النافذة وراحت وحدها تقلّد شادية أمام عشاقٍ مفترضين في نوافذ مقابلة... لا أرى كِسر الأمان هذه، ولا البحر المترامي وراءها.. فبيني وبينها فراغ أكثر حضوراً وصلادة، هو البناية التي كانت هنا وغابت في غمضة عين..

مهندس جهنمي شرير وضع في مرآب هذه البناية سيارة.. سيارة استخدمت قبل ذلك لنقل الأطفال إلى مدرستهم، ومن نافذتها مدّت الأم يدها لتحييهم وتمتمت في دخيلتها «كبروا».. في هذه السيارة وتحت مقعد الأطفال وضع هذا المهندس ٢٠٠ كغم من الـ ت.ن.ت وقنينة غاز وصاعقاً، وحَسبَ الأمر بدقة مميتة: في المرآب المغلق وبين زحمة السيارات تكفي هذه العبوّة مع عصف الانفجار لتقويض البناية من أساسها. وبأصابع دقيقة كملاقط التشريح وضع عقارب ساعة التفجير على الـ ١٢:١٠ مساء.. أي الساعة التي يكون فيها الطفل قد حلم بأن الشراشف حملته إلى غابة تحلّق أسماكها على أزهار بحجم صواني الطعام... وفي هذه الساعة تمتدّ يد العريس لتوقظ الشهوات الحبيسة في جسد عروسه الشابة، ويمتلئ رأس الكهل ببخار العرق فتدمع عينه وهو يراقب أولاده المتحومين حول فيلم السهرة.. كم من السهو والغفلة والبراءة تكثفت في تلك الثواني التي سبقت هزّة الانفجار؟!

جارتنا الصبية كانت واقفة في الشرفة حين حدث... لا تعرف إسماً لما حدث..

لقد سدّ الانفجار ذاكرتها وبصيرتها وإحساسها بحقيقة الأشياء، وسدّ الكلمات في فمها... وعندما صحت بعد أيام تذكرت رجلين صعدا عالياً إلى السماء مع قاع الغرفة والسجادة وهما يلعبان النرد ومعهما التلفزيون وعلى شاشته ما تزال صورة المغنيّة اللعوب، وبرّاد الطعام مفتوح بانتظار يد تمتد لتأخذ خيارة أو قنينة حليب. ورأت رجلاً وامرأته انقذفا عاريين على سرير النوم كأن الله اختارهما إلى جنته في لحظة الذروة هذه...

في هزة لا تصدق وبريق يأخذ الأشياء وذكراها غابت تلك البناية وفواجعها.

أغمض عيني وأقول: كلا... كان ذلك وهماً... لم تكن هنا بناية، ولم تكن أبداً كل تلك الحيوات الغافلة: وهيبة الخياطة العانس، أبو أحمد الذي لا يخجل من الأحاديث الفاحشة أمام النساء، جمانة التي تنتظر في الشرفة زوجها المسافر للعمل في الخليج... لم يكن أبداً أيّ من هؤلاء الذين اتمطّق أسماءهم وصورهم! وأفتح عيني فأجد السرير المعلق في الفراغ والأصيص الغريب الواقف عند نتوء ضيق بنباتاته الزاحفة على الحائط الأسود... إذن كانت هنا بناية... وهذه شاهدتها...وأغصُّ بعد بجرعة الماء وأنا أتذكر بغتة، كما لكمة على القلب، في البناية مغزى يخاطبني... ما حدث لها يمكن أن يحدث للمكان الذي أقف عليه. وعلى دقات قلبي أحسب تكّات ساعة التفجير التي دقت في مخيلتي فأفسدت عادات حياتي وأكثر سكناتها أمانا وسهواً...

ولأيام طويلة انتظرت أن تتعب مخيلتي من متابعة دقات تلك الساعة الجهنمية التي لا تتوقف ولا تنفجر فتنهي كل شيء. وانتظرت أن تتكفل عادات الحياة، بحيلها التي لا تحد، بإزالة هذا الهاجس. لكن فلسفة العبوات الناسفة تقوم على لحظات النسيان لتعطي الخوف ديمومته... فبعد أن أزيلت آخر أنقاض هذه البناية انفجرت في مكان ولحظة لا تخطر على البال سيارة أخرى في سوق الخضار وأخرى أمام باب سينما شعبية.. وكنت أقدم لصديقي كأس نبيذ حين سمعت صراخاً على السلم وقرعات على الباب: سيارة مشبوهة

تحت البناية... تركنا سجائرنا وكؤوس النبيذ والخبز الساخن وكرسي فان كوخ على الحائط ونزلنا حفاة على السلالم قبل أن نتذكر أننا ننزل باتجاه العبوة: أين نذهب إذن؟

وقبل أن نغادر باب البناية التي تنبض مثل جسد إنسان صرخ صديقي:

- إنها سيارتي!

لقد كسروا زجاج نوافذها ونثروا أحشاءها بتلك الهمة الملحّة التي تريد أن تسابق عقارب ساعة التفجير.. ما أثار كل هذه الشبهات التي خطفت عادات حياتنا شيء في مقعد السيارة الخلفي: صورة بتهوفن على أسطوانة تحمل سمفونيته السابعة.. أشياء كهذه تبدو غريبة مشبوهة في هذه المدينة التي تعيش على دقات ساعة تفجير.

بين عبوّة وأخرى تُركتْ مساحة للخيال المتناسل السائر دوماً على الحافّة التي تسبق الانفجار.. أسرِّع خطواتي بتصلّب حين يداهمني هاجس حاد كاليقين: هذه السيارة التي تحاذيني ستنفجر في اللحظة التي أتمتم بها: «بم!»... وأنا أبتعد عنها يقول لي الكائن الموسوس نفسه الذي استولى على خيالي وإيقاع خطواتي: أين أنت ذاهب يا غبي؟... إنها تلك البيجو الرصاصية التي تتجه إليها مسرعاً كما لمصيرك!

خلال أيام تعبت من وساوسي ومن هذه الساعة المنذرة التي تقطّر حياتي، وقلت في لحظة تكثف فيها إحساسي بالقدر: فلتنفجر!

قلتها وأنا أؤرجح ذراعي مستهتراً بحياة طارئة بين العبوة والعبوة... صرت أخطُّ بإصبعي زجاج السيارات أو أضرب أبوابها بقبضتي وأنا أمر... ولكن المهندس الشرير الذي يحكم إيقاع حياتي وخيالي بساعته كان يعد مفاجأة مخبأة لهذه اللحظة المستهترة... فقد انفجرت العبوّة هذه المرة في صندوق

قمامة عند مدخل بناية، بعدها في قنينة غاز في محل فليبرز، ثم في خزان ماء على سطح بناية، في صفيحة سمن...

لم تعد الأشياء، بين العبوة والعبوة، هي ذاتها.. فخلف المظهر الودود الأليف الساكن يختفي دائماً ذلك الجوهر النابض الذي سينفجر في أية لحظة.. وما دامت المسافة بيننا وبين الأشياء قد أصبحت ذات المسافة بيننا وبين الموت الصاعق الخاطف المخبأ فيها، فقد تغير سياق الحركات التي تعلمنا منذ بداهات الطفولة وتوارثناها من خبرة الأجداد... الطريقة التي ندخل المفتاح في ثقب الباب، الخطوة الكتيمة التي ندوس بها عتبة البيت، شحطة العود على علبة الكبريت.. في كل حركة من هذه تعلّقت حياة طارئة قد تنفجر في أية لحظة.

فدائي

– كيف؟ كيف لم يقل لي ولو تنويها؟ (تتساءل بحرقة وكأنها تجرّه سخطاً من ياقة قميصه). وأنا الغبيّة كيف لم أنتبه إلى ما سيفعله؟!

لم يكن الحزن وحده في فضاء الغرفة التي غادرها، إنما، أيضاً، إحساس الخطيبة بأنها استغفلت تماماً ولم تكن شريكة في أي شيء، حتى ولو بالقبول على مضض بالخيار الذي أخذ حياته.

الآن تسترجع بأصرار أدق سكناته لتعرف في أيٍّ منها تكثّفت هبّة حياته الأخيرة.. في السرير كان أسرع من أية مرة ولم يحكم إيقاع تنفسه... ثمة خيال آخر أخذه من ذراعيها. وما درتْ حين دخل الحمام أنه يجلو جسده ليكون مستعداً لقطعة مسننّة من حديد ساخن. ربما تمعن في المرآة مربكاً من وجه رجل سيموت عمّا قليل، وقاطع خياله بنتف شعرة شاردة من شاربه. عجولاً على غير عادته ترك فنجان قهوته على الطاولة ودمغة جسده على الشراشف المدعوكة المندّاة.

لم يكن لبيانات السياسيين وخطبهم أثر يذكر على توتر روحه، بل كانت تغلق حواسه بالتجريد ويلخّصها، وهو ينحّيها: «كلام». جدّه الفلاح علمه قياس الأمور بوجودها المرئي والمحسوس... ولذلك، بدأت الهزّة في داخله من مشهد خرق سياق حياته وطريقه اليومي بين المدينة والضاحية: مجنزرة إسرائيلية على حدبة من الأرض، من جوفها يُطل حتى الصدر جنديان امتلكا المشهد بسبطانة مدفع، وإلى جانبهما ثالث متكىء بكل قامته على أكياس يراقب الطريق بملل رخو لأن الأمور، على عكس التوجيهات، تسير بلا مفاجآت ولا توتر.

لم يكن حقداً خالصاً هذا الذي تملكه، إنما قبل ذلك إحساساً بلا منطقية الأشياء ولا معناها... هدير البحر الأصم الذي لم يتغيّر، هدير السيارة على الطريق المسفلت والناس الذين يعبرون الشارع بخطوات بطيئة كأن شيئاً لم يحدث... ثمة خطأ ما في سياق الحياة وحكمة الأجداد عن كبرياء الكائن.. هذا الجندي الملول الذي أشار له كي يمر، ينفي حياته وينفيه ويجعل روحه تدق الباب بإلحاح مربك...

منذ ذاك خضعت نفسه لتحوّل عجيب فبدت الأشياء هي وليست هي. وبدت مسرّاته وهمومه كأنها من آثار عصر سالف. وربما أدرك طلابه بأي ملل كرّر تعريف الفعل «لفظ يدل على حدث مقترن بزمان ومكان». ففي مخيلته أفلتت الأشياء من أسمائها والأفعال من فاعلها، واتجه كل شيء نحو حدث واحد: انفجار يكاد يفلت من أسنانه، وبريق يسلب الأشياء ثباتها الخادع... حتى كلمات السياسيين «الاحتلال، المقاومة» أخذت تكتسي لحماً وحديداً. لكن المعاني أتتْ أولاً من داخله ومن حيوية روح مقدمة على أن تحول الكلمات أفعالاً.

في كل يوم يمر على ذات المكان يحفّز حواسه لاحتواء المشهد. ودائماً يربكه التفاوت بين توقعاته وما يراه: تغير مكان المدرعة أو موضع الجنود حولها، ويداهمه إحساس بارد بفراغ المسافة بين الهدف وأقرب موقع للاحتماء.

وذات يوم سبقه خياله كأن ما ينبغي أن يحدث حدث الآن. وقد تكثّف خياله إلى صلابة الحديد وهو يتلمس القنبلة في جيبه ويحتويها بإحكام في راحة يده كأنها ستقفز قبله، وسرى ملمس الحديد البارد حتى عروق رقبته، وشم رائحة بارود محترق، ورأى جثته ممددة على الأرض.. بدأ ذلك منذ أن نزع جسده من غواية السرير ومن رائحة جسد معطر بالماء. وحين أغلق باب الغرفة وراءه، أغلقها على حياة كاملة ذابت في دوي انفجار وبريق يخطف الأشياء.

كاتم صوت

ربما كان عادل وصفي يسير، مثلي الآن، ساهياً مطرقاً يداهن فكرته في هذه المسافة الأليفة المملّة بين البيت والعمل، غير دار بأن فوّهة كاتم صوت تترصده. وفي لحظة غلبت عادات الحياة حذره: استوقفه رجل غريب طلب منه ناراً، وبجدّيته الخجولة مدّ يده باحثاً عن ولاّعةٍ... وقبل أن يضغط المقدمة غافلته رصاصة خرساء، لها صوت النفخة، استقرت تماماً في قلبه وأطفأت فيه جذوة الحياة.

في غرفنا وجدران طرقنا بقيت صورته تلاحقنا بتلك الابتسامة المقتصدة التي لا تكف عن تذكيري: الرصاصة القادمة من حصتك! وفي لمسة تشبه عدوى البيت نقل عادل وصفي رصاصته إلى رأسي! وعرفت بلا فكاك وبيقين اللحظة المربكة التي تحيط بي وحدي، أنه في مكان ما، وبين هؤلاء السائرين على الرصيف، الجالسين بتراخ خلف زجاج المقهى، أو بين الواقفين أمام تلك الواجهة، رجل يشيح عنّي حالما أوشك على الإمساك بصورته.. رجل يتتبع خطواتي وفي جيب سترته تنام قبضة كاتم الصوت في راحة يده المشدودة بإحكام.. به يفترض أن يقتلني في لحظة السهو الوحيدة، أي حين أنسى وجوده.

لن أعرف أبداً شكل وجهه ولا طول قامته، لأن القاتل على خلاف المحارب، يختار الناس خندقاً له، يموّه نفسه بهم، ببراءتهم وانشغالاتهم اليوميّة، السهلة... وما دام قد أخذ هيئة الكل، إذ هو أي واحد من حولي في هذه اللحظة التي أحس فيها بذاتي: قد يكون هذا الجالس على مقعد سيارته موارياً وجهه بالجريدة، أو ذاك الذي يتفحص استقامة شاربه في مرآة الحلاق... وربما،

بل مؤكد، أنه هو الواقف عند استدارة الشارع يشرب العصير ويتلفّت حوله بقلق... أراه، ينحي وجهه قائلاً بهمس «ها قد اقترب»، وأرى نفسي بعينيه هدفاً أسهل بكثير مما تصورني، ذاهلاً مستلماً أعزل إلاّ من كتاب ويد عارية توشك أن تمتدّ إلى الجيب لتخرج له الولاعة... أتجاوزه وقد سلّمته ظهري موشكاً أن أسمع ارتجاعة طارق المسدس، وأفزّ من يقيني بأن الرصاصة التي ستقتلني غادرت بيت النار، وأنها تشقّ الهواء متجهةً إليّ. تقلّص لحم ظهري ملتماً حول ملمسها، والتفتُ باحثاً عن مطلقها ثم أفنّد نفسي: ما هكذا يا غبي، لن تعرف الأمر حتى تصيبك.. وآنذاك لن تعرف!

وصلت عملي لاهثاً واتكأت على إطار الباب:

- أعتقد أني نجوت من كاتم الصوت...

قلت (أعتقد) لأنه ما من وسيلة للتأكد غير الموت. ولذلك، تباطأت كلماتي حين قابلوني بالريبة والتهوين:

- قد يكون مجرد اشتباه.

- يكفي أن يضعوا الاحتمال في خيالنا، حتى يتحول الكل إلى قتلة... هكذا كان هاجسي أيضاً..

- تقصد أنه محض خيال؟

- وربما لا.. لن نتأكد إلاّ إذا حدث العكس.

- تعالوا نكتب منذ الآن رثاء بعضنا.

- هذا أفضل، فأنا شخصياً لا أحب أن أوصف بفضائل لا أملكها.

- هذا إذا كانت لك فضائل.

بالمزاح أردنا، نحن المقتولين، أن نسفه الموت الذي يطاردنا وننزع منه حبته المرّة.

ناجي العلي أضاف للمزاح صرخة التحذير، فرسم وجهنا النحيل المتوتر مكمم الفم وعقلنا يصرخ بين الخوف والتحذير «كاتم صوت!» وفي تنبؤ أسود وزّع على أصدقائه المعدين على القائمة مرآة حقيقية عليها عبارة «Wanted» وتحتها حنظلة، مولياً ظهره بانتظار الرصاصة. أرى وجهي في المرآة قبل أن أغادر البيت وأهمس مثله: «الرصاصة القادمة من حصتك!»

أحد المقتولين (عاصم الجندي) عاد إلينا شاحباً ذاهلاً. ذهبت مع سعدي يوسف لزيارته في بيته. أزاح خصلات الشعر ليرينا خط الموت على رأسه، حيث انزلقت الرصاصة على عظم الجمجمة تاركة لمسة إصبع من نار: ويبتسم متوتراً من عجب هذه المصادفة: إنه لا يزال مع ذلك حيّاً. ويكاد يرتشف هذه الحياة التي أعيدت إليه بامتنان عميق متحاشياً تسمية القتلة، كمن يسامحهم على فعل طفولي أهوج أصغر بكثير من هذه الحياة التي استردها.. شقيقه اللاذع يمازحه:

- ها قد أضفت فشلاً جديداً يا عاصم: أن تكون شهيداً.

.. يضحك حتى تخضلّ عيناه بدمع الحياة التي أعيدت له بامتنانٍ عميق، متحاشياً عن عمد تسمية القتلة مكتف بكلمة «هم!».

لم نستطع، ونحن نغادره أن نتخلص من فكرة أننا كنّا في حضرة قتيل عاد إلى الحياة بصدفة نادرة وأن الموت كان يسم كل حركة أو لفتة أو ضحكة صدرت منه... مررنا بالزقاق الذي مرّ به، والزاوية التي انتظر فيها القاتل... بأية فكرة أو أخيلة كان يشاغل الزمن، وماذا قال لحظة الضغط على الزناد؟

صباح كل يوم أراقب مدخل بيتي من النافذة باحثاً عنه، وأغادر في وقت غير

محدد، أسير عكس السيارات، وأتجنب الطريق الذي سلكته البارحة، وأتحاشى سيارة عند الزاوية وزقاقاً فرعياً قد يخرج منه في لمحة عين رجل يطلب مني ناراً لسيجارته... ثم أسفّه هذا الحذر المتعب:

– أين تجد موتاً أسهل من هذا الذي تتحاشاه؟.. أن تقتل برصاصة لن تسمع صوتها وبلمحة لا تترك لك حتى مجالاً لصرخة «آخ!؟»

ومع ذلك لا أكف عن انتظار رصاصة خرساء توقفت عند نقطة ما ورائي، بين الفوّهة وظهري.. أستدعيها تعباً من انتظار على الحافة: «تعالي!». وأستفزّها وأنا أكتب مخاطباً هذا الرجل الذي يقرأ كلماتي حالما ترتسم على بياض الورق، وربما قبل ذلك مطبقاً يده على قبضة المسدس هامساً في داخلي: حذار!

زعيم سياسي

بدأت الزعامة وهماً عند هذا الشاب الذي عجز الشارب والبدلة الرسمية عن إخفاء نظرة الطفل فيه. تعلمها من رئاسة فريق رياضي ثم وراثة من الوالد الذي انتزعه من الزقاق وعلّمه، دون إرادته، الجلوس الطويل في المقهى وتقليد الوجهاء الكبار. ثم بدأ زعيماً على اخوته وأولاد عمّه المنتشرين في الحارة... ومن الفقر الذي يخجل من فقره فيغطيه ببدلة مكويّة بعناية، ومن مرارة الإحساس بأنه ملغىً في دولة الكبار، كان هذا الوهم يتغذى من لحمه... وقد بدأ الوهم يتحول إلى فعل مع تفكك الدولة وحاجة المواطن الصغير إلى حماية.. لا بد إذن لهذا الطفل من مخالب تجعله مخيفاً ثم محبوباً.

غاب عن محلّة صباه شهرين وعاد مختلفاً تماماً... كان شخصاً فأراد أن يصبح في ذهن من عرفوه فرضيّة.. وبقليل من عائدات دولة نفطيّة اشترى السلاح ووزعه أولاً على حراس بيته ومكتبه الذين ارتدوا لأول مرة بدلات المغاوير المبقعة. وبدا كأن همّه تركز على إخفاء ذلك الإنسان الأليف الذي عرفته الحارة، فلبس نظارة معتمة وجلس في المقعد الخلفي من سيارة تفصله عن أعين الناس بزجاج مضبب معتم... ودائماً يقطع المسافة بين البيت والمكتب بتلك السرعة الخاطفة التي توحي بالخطر الذي يحيط الزعماء. ومن نوافذ سيارة تسبقه يُطل شبان متوترون، أيديهم على أزندة الرشاشات، مستعدون لافتداء هذا الرجل الذي تعلو حياته الاعتبارية على حيواتهم الفردية الصغيرة... ما عدت أراه من شرفة بيتنا وهو يحيي أصحاب الدكاكين وجلاس المقهى باسماً ودوداً يريد الحب ويوزعه بسخاء... لقد اكتفى بالهيبة، وتأكد منها، وكيّف سلوكه وفقها. وقد غطى هذا الشعور المتبادل على ملامحه الملموسة..

فما من أحد على يقين بأنه سمن قليلاً خلال الأيام القليلة من فرط الجلوس الطويل وقلّة السير، وازداد شحوباً من قلة الهواء والشمس، وتوترت ملامحه وبرزت عروق رقبته، من هذا الضغط المتواصل لكي يبدو شخصاً غيره... نكاد لا نراه حتى خلال تلك المساحة العارية بين سيارته وبوابة المكتب.. دائماً تضيع صورته الحقيقية وسط قرقعة الأسلحة والحركة المتقاطعة للحراس الذين يربكون بصيرتنا بنظرات تجمع السخط والحذر.

من سوء حظّه أن كل ما في الزقاق يتذكره كائناً أليفاً وملموساً مثل الآخرين.. صاحب الدكان يتذكره طفلاً يخطف الحمص ويهرب، وصاحب المقهى طرده مراراً من مجالس الكبار. وتتذكر صبايا المحلة أنه لبس بدلة الأفندية قبل أن ينبت الزغب على شفته... لكن الفراسة والحاجة إلى الحماية علمتهم أن ينحّو ذاكرتهم ويقبلوه كما يريد: بدأ زعيماً قبل أن يكون إنساناً.

المكان نفسه سينقطع عما حوله ويتحول مسرحاً تتمثل فيه الأوهام المتبادلة بين هذا الزعيم وجمهوره... فقد رسم الزعيم حدود جمهوريته من «الكوّى» في أول الزقاق حتى «الفرّان» في نهايته. وأغلق حدودها بحواجز من براميل معلّمة... ما من غريب يدخل إلا ويبرز أوراقه الثبوتية لحرس الحدود... وبين هاتين النهايتين كل ما يوحي بوجود دولة كاملة: جيش نظامي متفرغ وموّحد الزي له دورات تخرج سنوية واستعراض أمام منصة التحيّة، إذاعة خاصة تبدأ بثها بعد القرآن بأخبار لقاءات الزعيم وتعليقاته على الأحداث المحليّة والخارجية، جهاز أمن خاص يتموّل من جباية الضرائب مقابل تقديم الحماية لأصحاب الدكاكين الصغيرة. ولا بد لهذه الدولة من عدو خارجي، غالباً ما يكون مجاوراً يريد التمدد والاحتواء. وفي مداخل هذه الدولة وعلى جدرانها صور الزعيم يريد أن يبتسم ثم يتذكر أن عليه أن يبدو صارماً أولاً، ثم جاداً، ثم حنوناً. ضيّق عينيه ليرى ما لا يراه الآخرون... صباح كل يوم يتصفح وهو يمر خاطفاً في الزقاق، هذه الصور التي تتناسل ويبتسم باطمئنان لأن الأمور تجري تماماً كما أراد وحلم.

مخطوف

سيدة طويلة ناحلة قطعت سطر كلماتي وقد انتصبت فجأة وسط إطار الباب، وطلبت، بصوت أقرب لليقين من التوسل، بضع دقائق من وقت عملي... الصورة المطبوعة التي وضعت على طاولتي تحمل عنواناً عريضاً مختلفاً «مخطوف»!

- أريدك أن تكتب عنه ولو بضعة سطور... هذه هي السنة الخامسة على غيابه. لم يكن لكلمة «غياب» غير معنى واحد في قاموس معارفي: «موت»، ولذلك سألتها ببرود من يريد تبديد وهم:

- وما أدراك أنه حي...

وقطعت، وقد صدمتني خشونة منطقي، الحقيقة التي أردت أن أقولها، وهي أن معظم المخطوفين قتلوا في مذابح الثأر المتقابلة. قتلوا غفلة وغيلة دون أن يقضموا تفاحة الخطيئة، إنما لمجرد أن الحرب قسمت المدينة بخط أسود دام بين الكراهية والكراهية.. ومنطق المحاربين يستحسن دائماً أن يعتبر العدو واحداً، بلا تفاصيل استثنائية.. سيذبح المخطوفون بعد كل مذبحة. واحد مقابل واحد في الطرف الآخر، لم يره ولم يكرهه. بل إن القاتل نفسه لا يكره قتيله في لحظة الذبح، إنما يفعل ذلك مندمجاً في غزارة النار وهو يضغط على الزناد. ويستخدم القتلى للضغط على الطرف الآخر، فيغذي الدم الدم الآخر، والموت الموت الآخر.

لم تفزع نبوءتي الأم الواقفة أمامي وقد اصطكت أصابعها النحيلة عن الصورة. جلست على الكرسي المقابل بثبات من طرح السؤال مراراً على نفسه، واعتاد

الحياة على الحافة الجارحة بين نعم ولا.

- قلبي يقول لي إنه حي. ولأن أحداً لم يثبت أنه...

بسملت واستعاذت لتبعد عن لسانها تلك الكلمة التي لا تريد إقرارها. وروت لي وقائع يوم سائق سيارة أجرة شاب يعيل أرملة وثلاثة اخوة وأخوات... كان ذاهباً كما في كل صباح باكر في طريق تيقن أنه سالك، وما درى أن أحداً لا يعرفه، وفي مكان لا يدريه، سيقطع عليه طريق حياته اليومي بحاجز طيار اختاره بالصدفة والتعيين، لحياة لم تخطر بباله أبداً: أن يكون كائناً ومفقوداً في الوقت نفسه، وبرقم سري سيحل مكان اسمه الحقيقي، وفي مكان يقطعه عن كل تلك العلائق والعواطف اليومية التي تعطيه وزناً.

نظرت إلى صورته وكتبتُ ما أرادت فقد أملت علي كلماتي، بحيث تبتعد عن رثاء المخطوف، وتتجه قبل ذلك لوجدان خاطفيه. ذهبت المرأة وتركت صورته على طاولتي.

ودائماً أحاول الهرب من نظرته ومن صورته، فأغمر نفسي بوجوه أناس احتلت جدران طريقي وزواياه، وجوه تتناسل، يزيلها المطر والزمن أو تختفي تحت صور شهداء جدد، يأخذون البصر، وربما البصيرة دقائق معدودة، «لقد رأيت هذا الوجه، ولكن أين؟» ثم ألغى حركة ذاكرتي وعواطفي بقرار هارب: «لقد ذهب مثل آخرين» كأني أغلقُ باباً في ذاكرتي قد يتدفق منه القتلى بلا توقف.. أصفه مع هذا الحشد مقرراً «لقد رحل مثل الآخرين». لكني أدرك مجهداً عبث التناسي لأن مخيلتي تعاندني بوعي الأم وكلماتها «مخطوف». ولا يكف هذا الشاب النحيل، الذي حمل أنف أمه وشفتها المزمومة ونظرتها النافذة، عن النظر إليَّ أنا الهارب منه إلى ورقي وكلماتي، مؤكداً حضوره في مكان وزمان ما. أريد أن أصل إليه فيفلت مني ويدعوني إلى فعل لا أعرفه وطريق أجهله. ومع ذلك عليّ أن أخطو، لأن ثمّة حياة تنغّص عليَّ كلماتي وطعامي وأحلامي..

مثل أمه أخذت أتابع أخبار المخطوفين في الجرائد وأتصفح الأمكنة، والأمكنة المحتملة لأخلق منها ديكوراً لحضوره الغامض الأكيد. ويقلقني هذا التعارض بين وجوده وغيابه وبين فرضيتي وحقيقته. أستجمع خيالي وبصيرتي لأحتويه فيفلت مني إلى وجوده الآخر الغائب تاركاً بيني وبينه هاوية الفعل الناقص.. لقد خطف المخطوف ثبات يومي وأحالني إليه واحتل مقعدي وأوراقي.

طيران

صباح كل يوم، وفي طريقي من البيت إلى العمل، أرفع رأسي فأرى الإبرة البراقة نفسها تترك على قماشة السماء الزرقاء خيطاً من القطن:

- طيران!

.. هكذا تقول الطلقات المنفردة التي تنبه رماة المضادات فيهرعون من الزوايا الظليلة، أو من محلات الفليبرز، بقفزات سريعة ليأخذوا مواقعهم خلف لوحات التسديد ليتابعوا الطيران المعادي قبل أن يغادر سماءه العالية وينزل نحو بيوتنا...

للحظات، يرفع السائرون رؤوسهم بضجر ساخط، قد تتجمد للحظات حركة المرأة التي تنشر بياضها على حبال السطح معلنة دون أن تقول ذلك: إن عادات الحياة ستستمر رغم ذلك. وقد يرفع السابح في البحر إصبعاً ليقول «إنه عالٍ وبعيد» ثم يخترق برأسه صدر الموجة الآتية، ويواصل المعلم بعد إطلالة قصيرة من الشباك جملته «يزرع الفلاح الحقل» وخلفه يردد الأطفال: «يزرع الفلاح الحقل».

أردت ذات يوم وأنا سائر في الشارع نفسه أن أحرك خيالي الراكد فآخذ مكان الطيار وأرى نفسي من ذاك العلوّ بعينيه.. سأبدو بالتأكيد مثل علامة تعجب مقلوبة... هل سيغويه مشهد السابحين المدين بكسل على الشاطئ الرملي، وخفقة البياض على حبال الغسيل، ومرور النبتات الخضر في الحقول المشمسة وينسى للحظات مهمته: أن يجعل هذه الحياة اليومية تحت سطوة

قدر لم يختر حتى الآن لحظته؟

مرة نزل الطيار من أعاليه متجهاً كالمخرز نحو حياتنا اليومية الكسولة.. للحظات رأى بوضوح أشد تفاصيل الأشياء وحركة الكائنات داخل ذلك الاستواء والهدوء العجيب الذي يغطي المشاهد العريضة.. لكنه لا يرانا كما نحن، فمن لوحة التسديد ستبدو أرضنا مقسمةً إلى مربعات وخطوط طول وعرض.. عليه أن يتحاشاها ويتجه نحو نقطة حمراء:

- في الطابق الثاني من هذه البناية مقرّ للإرهابيين..

تنزل الطائرة فأرى قدومها بلحم ظهري وأنا أبتعد عن المكان، وعين الطيار تتجه إليّ بالتحديد وهذا الأزيز يصعد من داخلي.. لقد سكنت الطائرات مخيلتي وقبل ذلك مخيلة ابنتي التي تخاف أن تفتح ستارة النافذة، لأن الطائرة تنتظرها وراء الزجاج. وعندما فتحت الستارة لأريها وهم ما تخيلت رأيت خيطاً من القطن الأبيض تركته طائرة عابرة على قماشة السماء الزرقاء.

غارة (١)

«النّون».. هي آخر حرف كتبته ثم حدث الزلزال. دار الزمان على المكان والذاكرة على المتذكر.. دار الاسم على مسماه والصفة على الموصوف والفعل على فاعله.. دارت «النون» على نقطتها.. تركت القلم والورقة وحدهما في مواجهة الخراب وجئت إلى «كتيبة الناصرة» في «بئر حسن» مقاتلاً من الفصيل العراقي الذي توزع على المواقع.. أحاول من موقع الانتشار في حرش الصنوبر أن أنظم الكابوس في سياق من الزمن والكلمات:

أبدأ من الزمن الآخر الذي تلا «النون» فأسأل عن اسم الذي وقف على الشرفة وأعطاني قفاه وقال بتراخ وضجر:

– طيران!

ورأيت، أو دريت وأنا في مكاني، أن طائرة الظهيرة جاءت لتخط، كإبرة، على قماشة السماء الزرقاء خيطاً من السحاب.

أين ذهب القائل: «طيران». وكانت «النون» أشد الحروف وأوغلها في الزلزال. كيف عاد إلى طاولتي وأمسك قلمي؟ كيف؟.. لن أراه أبداً بعد الآن..

كم من الزمن مضى وأنا ساهٍ هكذا غير قادر على أن أوالف الورق مع القلم؟ أذهب لأشاغل كآبتي بتفكيك السلاح وتركيبه. أمازح أصغر المقاتلين في القاعدة وألفت انتباهه لصدر امرأة تنشر الملابس، ثم تداهمني الكآبة.

أتجول في أزقة المخيم بعدة الإنذار «جيم». وأمامي بخطوات طفل نحيل منتفخ

البطن يراقب لحيتي بفضول، وهو يقودني دون أن يدري إلى متاهة مسورة بالصفيح.

.. دون أن يقول كلمة، فتح باب بيتهم وأراني إخوته الذين تناثروا على الأرض الوحلة، خارج علب الصفيح. شربت من يده كوب ماء دون أن يقول لي كلمة. وارتعش الكوب في يدي حين داهمت نظرته النابتة مكمن كآبتي. كافأته برصاصة باردة في راحته، وعدت إلى شجرة الصنوبر.. ركنت رشاشتي وفرشت الورق: كيف أعيد للنقطة نونها وأبدأ الكتابة؟

... لأقل إني رأيت الطائرة آتية نحو «جندورة» عيني، إلى حيث تأتي السماء مائلة، ومن حيث تذهب الأرض صاعدة نحو الطائرة.. هبطت الطائرة وهي تجر خلفها قماشة السماء الراعشة. تزوغ بين صليات المضادات المرتبكة ثم تصعد من وراء البنايات فتفلت النون من نقطتها وتهجر حجارة البنايات بعضها والحدث اسمه وتفلت من الساعة عقاربها في تلك اللحظة السوداء: (الساعة ١١:٣٥ اليوم الجمعة، ١٧ تموز، العام ١٩٨١).

- قصفوا الفاكهاني!

لم أصب، لم تمسني شظية.. انما غمرت روحي بمسحوق البارود المحترق الذي ترك رائحته وملمسه في أنفي ومسامات جلدي ومذاق طعامي وشفة امرأتي وبياض أوراقي.. لقد احتواني البارود من تلك اللحظة إلى الأبد.

- .. الفاكهاني.

.. لن تبقى منه إلا سحابة البارود..

على السلالم يدفعني سيل النازلين وصراخهم.. لا نهاية للسلالم تحت من ينزلونها هرباً من سماء معادية. عند باب الملجأ يهدئ الوالد أطفاله بصراخ أعلى من صراخهم.

وفي الملجأ يتعرف الخليط العجيب الذي يسكن البناية على بعضه: أم تمزق ثيابها خوفاً على الأطفال الذين لم يأتوا بعد من المدرسة، عروس نزلت بشبشب العرس وعطوره وقد ودعت زوجها إلى خطوط التماس، النحات الذي فاضت شقته الصغيرة فخرجت تماثيله إلى السلالم، السكير الأعزب الذي يبقي باب شقته مفتوحاً ويدعو كل صاعد لأن يتفضل ويشاركه كأساً، موظفة شركة الطيران الأنيقة التي تنازلت عن غرورها وتركت الكمبيوتر وجلست ممدودة على السلم.

هنا يندم الكل لأنهم لم يتعارفوا من قبل وتحصنوا وراء جدران من الكبرياء. لقد شف الخوف أرواحهم حتى أن موظفة الطيران فتحت علبتها الذهبية «have a cigarette» ثم بالعربية: «هل سنموت؟»... في لحظات الخطر يتواضع الناس ويستصغرون معارفهم ويتمسكون بأي تطمين من الآخرين. يدرون أن الموت فوق هذا السقف الهش أكبر بكثير من معارفهم الساذجة، لذلك يصدقون أي ساذج يعطيهم شيئاً من قواعد الدفاع، ويلتصقون ببعضهم كلما ازداد دوي الانفجارات، وترمش جفونهم... ثم، فيما بعد، يتعبون من خوفهم هذا ويصلون إلى يقين ما بأن خطر الموت يقصد فقط أناس العالم العلوي المجبولين على الخطر والمغامرات. أما هنا فيمكنهم أن يتآلفوا مع حيز الحياة الخانق الضيق هذا حتى الأبد، شرط أن يبقوا أحياء. ويعللون أنفسهم بأن المقاتلين فوق لا بدّ وأن يتعبوا يوماً من قتل بعضهم ويتفق الأحياء على حل... آنذاك سيكون حد لكل هذا العذاب... أعجب كيف يستطيع هاملت «أن يحصر في قشرة جوز ويرى مع ذلك الرحاب جميعا» فقد أغلق الملجأ جدرانه على مخيلتي حتى كدت أنسى إمكانية وجود ساحة مشمسة وحقول ممتدة ولون أصفر أو أبيض، وأصبح البحر مجرد فرضية عصية على التصور. فالشيء المؤكد الوحيد هو هذا القبو بجدرانه الاسمنتية القاسية وهذا الكدس البشري الذي يتنفس ويتحدث بلا يقين. أضيق بهذا القبر والخوف الذي لا يولد غير الخوف، فأخرج نافراً إلى عالم الوضوح مقنعاً نفسي بأن الموت يسير جداً، وله سرعة الرصاص التي قد لا تسمح حتى بكلمة: أخ!

تركت الملجأ هارباً من وجوه الناس إلى فعل لا أعرفه... أنا ذاهب لأبحث عن ذلك الذي لا اسم له ولا أعرف ملامحه.. لم تكن الشوارع نفسها ولا الزمان.. لقد غيرتها حركة الناس الذين يركضون كنقاط هائمة.. على طول الطريق. تسألني من مداخل العمارات وجوه متزاحمة ومتشنجة:

– قل لنا ما حدث؟

فدائيون منفعلون قطعوا عليّ الطريق بالأذرع والصراخ:

– إلى أين؟

– أبحث عنه!

.. أركض وأميز بين تقاطع البنايات والناس شكلاً آدمياً من الخوف وغبار البارود.. هذا الذي أبحث عنه.. اخترقت جوف السحابة السوداء التي يظللها لون اللهب داريا بالذي سيليها: أول معالم الغارة. . البناية التي.. ممددة بأحشائها وأسرارها على الشارع جدراناً ولهباً ولحماً آدمياً.. «مستحيل!».. قلت وأنا أراقب اللهب.. أن ينهض من تحت الحجارة ومن اللهب ذلك الذي أريده..

– لا تقف هنا! الغارة لم تنته بعد.

– أبحث عنه في المدرسة!

الصفوف خالية وطاولات الدراسة تدلني على شكل الذين غابوا، ومن النوافذ يدخل سيل من البارود المحترق. وعلى السبورة حرف (النون) وحده.. المعلم وحده يدور في الممر شابكاً يديه خلفه. «أتقدم إليه أم لا؟ عمن أسأله؟»

– أعرف عمن تسأل؟

قال المعلم من آخر الممر، وما كنت أعرف من أي جرح نزف كل دمه. كنت

أسمع صوت قطرات على بلاط وربما دقات ساعة.

- أبحث عنه في هذه الغرفة!

تفحصت وجوه الأطفال الذين تراكموا وانحشروا في زاوية الصف. كيف يستطيع الناس أن يشغلوا هذا الحيز الصغير؟ صرخوا جميعاً عندما رأوني أتجه نحوهم. كيف لي أن أميز وجهه؟ لقد عصر الخوف وجوههم ووحدها، ووحد صرختهم كفرقة إنشاد تغني لحن القيامة.

«لن أبحث عنه بعد الآن!» فمن المحال تمييز وجهه. لأقل أنه واحد من هؤلاء. أحمله.. أي واحد منهم، إلى الملجأ المقابل وقد انغرزت أصابعه في لحم كتفي.. أحشر نفسي بين لحم مضغوط وعويل متقاطع، حيث لا فارزة بين اسم وآخر ولا جسد وآخر. لا أعرف في هذا التجويف الأسود باب الملجأ. ثم أتحسسه من دفقة هواء حار، هواء أنفاس الناس الذين حشروا ورائحة جلودهم العرقانة. أنادي فيجيبني كل الذين ينتظرون منقذاً:

- تعال! نحن هنا!

أمد يدي فتمسكني يد، توصلني لأخرى فثالثة، سحقت لحماً ليناً وجرح جفني مخلب امرأة تبحث في الهواء عن وجه تفتقده. وتأخذني موجة من صراخ وسعال متصل.. هل رأيت.. شبلاً خلع قميصه وراح يهوّي مدخل الملجأ.

- خذوا هذا الطفل من يدي!

هناك من يجر الطفل مني، لكن أصابعه تظل مغروزة في لحم كتفي:

- الطائرة تنتظرنا عند باب العمارة.

.. هذه هي الجملة الوحيدة التي سمعتها منه، ثم غاص في التجويف مع البشر الذين حشروا في الأسفل دون أن أعرف اسمه ووجهه أبداً.

أمدُّ نصفي من مدخل البناية إلى الشارع لألتحق بالحشد المحوم على حافة الحريق والخراب. لكن الحشد ينشطر نصفين تاركاً وسط الشارع، ويفرُّ بعيداً بمحاذاة الجدران والأكتاف مزاحة مائلة... لقد رأوا الطائرة تسير بين البنايات.. تطلق رشقات الـ ٨٠٠ وتنزل باتجاه الهاربين. تستدير وجوه الفارين إلى الخلف، حيث يرى كل واحد قدوم الطائرة بلحم ظهره.. ويرى الموت متجهاً إليه وحده وبه يحدق الطيار، ويحاول كل واحد أن يحفر برأسه ثقباً في الجدار..

لن أنسى أبداً ذلك المقاتل المدجج الذي بقي مغروزاً وسط الشارع مثل علامة تعجب، تشخص ما مر وما سيأتي. سيفتدي الجمع بجسده وهو يدل الهاربين على مداخل الخلاص.. هل مال، أم ماد الشارع تحته؟ واهتز الجدار الذي أسند ظهري إليه وقذفني العصف إلى جوف البناية. وفي لحظة بين الوهم واليقين رأيت كدساً من الورق ينفجر من نافذة، ويطير عالياً في الهواء، ثم يحلِّق فوق شجرة البارود السوداء كحمائم فقدت أرضها... وسمعت جدراناً تقضقض وأشياء تسحق... وتدفق اللهب من كل أفواه البناية.

عندما غادرت الطائرات سماءنا الضيقة، انسحب الحدث ليترك الفاجعة.. بقي الناس الذين بوغتوا لصق الجدران، لن يتقدموا خطوة.. لقد فقدوا ثقتهم بصلابة الأشياء وبالأرض التي يقفون فوقها.. كل الأشياء أصبحت هشة وقابلة للانهيار فوق أو تحت الإنسان. ويمكن للغدر أن يأتي من أية رقعة مكشوفة. حتى أبسط الأفعال أصبحت خطرة. وفقدنا شكيمتنا لحظات قبل أن تتكشف الغشاوة، لقد عززت الطائرات سطوة القدر على منطقتنا.. استندت إلى جدار مائل لأحاول إعادة تركيب الصورة، لأرى إلى جانبي امرأة خرجت تواً من القبر غبراء شاحبة شائبة.

– ألست ضاربة الطابعة؟

– أنا هي!

- منذ كم لم نلتق؟

-...

أمد يدي لألمسها فتهزني.. ما من لمسة إلا تفتت هذا الجسد المصنوع من تراب هيال.

- هل فقدت أحداً؟

- نعم.. كلهم، وأنا أيضاً.

سحابة ثقيلة من البارود والغبار ورائحة المطاط خيمت على الشارع كله، ومن داخل السحابة يتدفق صراخ موصول.. اقتربت خطوتين نحو البناية لأنزع هذا الحذر القاتل الذي يعصر قلبي.. أردت أن أفعل شيئاً للناس الذين رأيتهم قبل ساعة عند باب البناية وربما دفنوا الآن تحت هذه الجدران المقضقضة المصلصلة. مع المنقذين نمد أيدينا إلى الحجارة بأفعال مرتدة.. ما تزال الجدران تنز دماً من مساماتها وشقوقها. وتحت كل حجر نهجم عليه، نكاد نلتقي وجهاً تجمدت عليه الدهشة أو الذهول، وبين أسنانه تكز آخر الحروف.. مع المنحنيين حاولت أن أرفع جداراً لا يزال يحمل بعضاً من رسوم الأطفال.. رأيت تحته، في مخاض الضوء بالظلمة، يداً آدمية انحنت كل أصابعها على سبابة معقوفة كأنها تمسك حبلاً من الريح. نستجمع كل فورتنا لتلك الروح التي تنادينا وتشدنا بحبل الريح. وتهز كتفي امرأة صراخة:

- ارفع! ارفع! ارفع!

ثم ألتفت لهذه الأم التي تستحثني وأخيب أملها:

- مستحيل!

ويصرخ بوجهي أحد المقاتلين:

- أحضر الرافعة!

فألتفت لمن ورائي وأعيد عليه الصرخة:

- أحضر الرافعة!

ويتزحزح فوقنا جدار مائل فنندفع إلى الخلف وتتجمد أبصارنا عن سيل الحجارة والتراب. خيل لي أني رأيت في سيل الحجارة جسداً آدمياً رفس الهواء وانهار مع الجدران المنزلقة.. وبين دوي اللهب وقضقضة الجدران ومسيل الحجارة، كانت الحياة في جوف البناية تتلوى مسحوقة أو ناهضة من الركام. وكلما ارتفعت صرخة اقتحم اللهب شبان شجعان يزيحون الموت بأكتافهم، ويتوغلون ثم يخرجون بعد قليل يحملون أطفالاً أو جثثاً مدماة، أو يخرج الأحياء، وحدهم من ركام الحجارة كأشباح عمياء يمزقون بأصابعهم غلالة الموت، أو يندفعون إلينا كسهام تحمل النار في أذيالها. وقد خرجت من سيل الحجارة امرأة تهبط السلالم متكئة على الجدار تجر ساقاً مسحوقة وتحمل وليدها على صدرها. ويخرج الأحياء وقد خنقهم السعال كأن أحشاءهم ستنقذف حالاً.. وحول هذه القيامة القائمة من حجر ودم ونار يتحول حشد هائل لا يريد أن يسمع التحذير:

- لم تنته الغارة!

رنين معاول، جدران تتشقق، صراخ من الممرات التي أغلقها الردم، الأنين الموصول لسيارات الإسعاف، صراخ الأطفال والأمهات ، وصراخ الذين يهدئونهم، ووسط كل ذلك لا يمكن إلا أن أصرخ. هل كنت أصرخ؟ أم أنني كنت أعيد دورة (النون) حول نقطتها؟

غارة (٢)

واحد منا كان يجر الآخر من تحت الجدار المنهار: أنا وأختي الصغيرة.. كأنها قالت: «لا تجرني بقسوة.. فقد تنقطع يدي!». ومن تحت الجدار الضاغط كنت أرى وجهها يضيق ويبتعد: «آسفة فالجدار أثقل مما تصورت».. أينا كان يرفع الجدار، ومن الذي اختنق تحته؟ صافرة الإنذار أخرجتني من الكابوس.. لملمت عتادي ورشاشتي وحقيبة دفاتري وسألت الحرس:

- الانتشار اليوم مبكر جداً؟

- نعم!.. قصفنا مستوطناتهم طوال الليل ونتوقع رداً قاسياً.

تلقينا توجيهات آمر الموقع:

- طلقتان وطلقة تعني التجمع.. مفهوم؟

وانتشرنا بعد فطور سريع ما عدا ماجد الذي همس في أذني:

- لا أستطيع النهوض.. لقد جاءتني «رسمية» في الحلم وبللت بنطلوني!

سأبقى وحيداً.. بلا شفاعة غير الورق.. أردت أن أبدأ الكتابة: «بناية رحمة..».

- وماذا بعد؟

عندما تمدد بياض الورق اكتشفت اني لا أستطيع.. «أيتها الكلمات، يا نقود الذهن.. بادلي الحدث!» تركت القلم عندما رشت الريح أوراقي بتراب المخيم. ألقيت يدي إلى جانبي كجثة مستقرة ورحت أراقب الحياة وهي تدب في المخيم

بخطوات كسولة:

السوريون ذاهبون إلى مزارع الموز في الدامور مع أدواتهم. واندس مهرب الحشيشة الأعور في سيارته العتيقة وغادر.. إلى أين؟ وعادت سيراً على الأقدام بائعة الهوى (رسمية) التي بللت بنطلون ماجد.. والأطفال الذين خرجوا من علب الصفيح باتجاهي.

- بم أبدأ؟

بخطوات شديدة الحذر أتسلق نصب الموت والخراب: (بناية رحمة).. عبر السلالم المنهارة وكتل الحجارة والقضبان الملتوية أردنا أن نصل مكتباً في الطابع السابع لسبب لا أعرفه.. رغم الكمامة والكافور، كانت رائحة الجثث تخترق روحي نحو ذلك الرقاص الذي يوشر مسرى الحياة. هل كانت هنا حياة؟.. بين آونة وأخرى أتكئ على جدار مائل.. أرفع رأسي وأتنفس بعمق لأوقف الدوار وأعيد تركيب الصورة. بأصابعي أزيح غمامة تخلط الأشياء داخلي وحولي، وأتقدم خطوة أخرى. أغربل الرائحة وكتل الحجارة والتراب لأتصفح وجوه القتلى. أستعين بأسمائهم فأنطقها بصوت متحشرج ثقيل كما أنطق جثة، علَّ الأسماء توصلني إلى يقين ما بأن أناساً بهذا الاسم كانوا موجودين فعلاً، لكن رائحة الموت حولت الناس والأشياء إلى وهم.

- شوقي!

.. قبل قليل أخرجوا جثته.. هذا الشاب الحازم القصير السريع اللفتات. أكان ذات يوم.. واقفاً على التلة يحثنا، نحن الزاحفين في الوحل، بمكبر الصوت «أسرع، أسرع!؟» مساعده يطلق النار عند رأسي وقد ملأ رذاذ الطين عيوني. آنذاك تدخل شوقي وساعدني على النهوض وأعطاني منديلاً لأمسح حاجبي وهو يقول لمساعده: «لا تعامل الكتّاب معاملة المقاتلين. بدل المقاتل يأتي مقاتل.. أما الكاتب...» كيف فاتني أن أرد له الجميل؟ استشهد

شوقي على بعد متر واحد من أولاده الذين حشروا في الزاوية. أصبح الآن شيئاً من الأشياء، إسماً.

- شوقي؟

.. أصعد بضع درجات فتقطع طريقي ثغرة في السلم، أمد يدي لأمسك اليد المبسوطة للرفيق الذي سبقني فأرتعش من ملمس اللحم... فيما بعد قال لي أحد الناجين: أن شيئاً كهذا حدث له حين لمس بطنه بطن زوجته على الفراش.. لقد فقد اللحم الإنساني علاقته بالحياة. فكثرة الجثث التي رأيناها أحالت ملمس الإنسان إلى الموت وحده.. لقد لمست جثة أبو أنطون وأنا في عز الدوار. لا أريد أن أصدق أن هذا الممدد في تابوت، هو الأهيف الذي رأيته قبل الغارة بنصف ساعة، يشرب قهوته على الناصية ويراقب للمرة الأخيرة المرأة التي دخلت محل الحلاق... لقد استقبلني «أبو أنطون» حال وصولي من العراق بوجه المحقق الحازم الشكاك. في الليل جاء إلى بيتي ليشرب نخب سلامة الوصول، وغنى معي حتى ساعات الليل الأخيرة.. لم أصدق أني خسرته تماماً إلا حين أهيلت عليه أول حفنة من التراب... على حافة الخراب رأيت كرسياً هزازاً توقف في ساعة النحس.. ما اسم الرجل الذي ترك شكله الغائب على هذا الكرسي. فنجان القهوة المحطم هذا كان بين أصابعه حين حدث الزلزال. لقد رأى، بالتأكيد، أولاده البكائين وهم يتجهزون للذهاب إلى المدرسة. رأيت حقيبة واحدٍ منهم قرب الباب، حيث يترك الطفل دائماً حقيبته ويغادر البيت عجولاً إلى الشارع.. هل وصل الطفل إلى الشارع؟ هل سمع نداء والده؟ ما اسم الطفل؟ ما اسم والده؟

- جياب التونسي!

أنا أعرف هذا الاسم، أعرف وجهه البربري جيداً.. كنا نشرب النبيذ معاً على الأرض في غرفة دافئة فرشت بالسجاد. مع كل رشفة نبيذ تهب زوجته لتنتزع

منه الكأس: «الطبيب منعه من الكحول». أراد أن يقنع زوجته أن النبيذ لن يؤذي قلبه. لكن زوجته كانت تترصده كاللبؤة.. في المرة الثانية كما نسبح معاً في بحر هائج.. سحرته الأمواج فترك أطفاله معنا وذهب وحيداً إلى العمق، يخترق بطن الموجة ويصعدها بانهماك جميل مثل سمكة نشيطة لا عالم لها غير الماء.. لكن جياب الذي خبر المعارك والأمواج العاتية ما استطاع أن يغلب موجة الحجارة التي انهالت عليه.. من فجوة في الطابق الرابع تطلعنا إلى الفراغ المكدس في ساحة المنور.. بين كتل الحجارة الضخمة تناثرت الكراسي وصحون الطعام وكتب المدرسة وأدوات الزينة النسائية والآلات الطابعة. وفوق القضبان الملتوية كالأعصاب علقت شراشف النوم وثياب النساء.. هذه الأشياء التي سترت جسد الإنسان اللين.. أيتها الذاكرة قولي! أية مراهقة كانت تلبس هذا الفستان الضيق الذي يحمل لون الثلج والكرز الناضج؟ كثيراً قطعت حاملة الثلج والكرز زقاقنا وقد لمت مواضع الإثارة في جسدها، كلما مرت وسط تجمع المقاتلين..

هذه العيون الشجاعة الشرهة تنتهك ستر جسدها المتوقد كالجمرة.

ذهبت صاحبة هذا الفستان المجرح؟؟ المصلوب فوق قضبان الحديد المنتفخ؟؟ والرماد؟

.. هنا استشهد رفيقكم الصحافي

.. غازي فيصل..

.. خفيفاً باسماً كان يأتيني وأنا منهمك، ودائماً يسألني عن موعد اللقاء:

«هناك أشياء كثيرة للحديث بيننا».. لم تجمعنا جلسة البوح الحنون عند كؤوس العرق، ولم أعرف شيئاً من أسراره. أدري أنه ترك زوجة جميلة وطفلة تشبهه في براغ. ومضى ذاهباً إلى الوطن. وتوقف في بيروت وأعطى دور النشر بعضاً من

كتاباته. لم يصدر واحداً من كتبه، إنما أغلق كتاب حياته نهائياً. دخلتُ حجرته وأنا أسحب جسدي باتجاه جثته خائفاً من أن أدوس يده اللينة..

في الغرفة التي تليه رأيت على الجدار غابة من ندى الصباح. الأوراق البرتقالية الساقطة من أشجار الحور غطت الأرض... كل ما في هذه الغابة ينتظر خطوات كتيمة لإنسان متوحد.. لقد هزّت الشظايا المسننة الحارة سكون الغابة وبردها وانشق خلفها جدار الحياة. وفي هذه الغرفة المعلقة في الهواء رأيت عاملاً شاباً جاثياً فوق الركام – في صلاة صامتة، يزيح الحجارة عن الأباريق الفخارية.. ويمسح الصحون المحطمة بيد حانية، ويعيد تجميعها فوق القماشة. يريد ترميم الحلم الذي تحقق بجهد وهوى: لقد أصبح له بيت وزوجة شابة. أكان يرمم الحلم الذي انفجر، أم يتحسس لمسات زوجته على صحون الطعام؟ لم نسلم عليه ولم يلتفت إلينا.. لن يبدد حزنه الجليل بالتشكي والبكاء. فوقه كانت ساعة الحائط وقد توقفت عقاربها على ساعة النحس: (١١:٣٥)... هذه الأشياء المتناثرة المشظاة أصبحت أكثر حضوراً وحدّة.

أحرس الخراب.. هذه هي مهمتي الليلة. استلمت مناوبتي من حارس يلبس الكمامة. وكانت كلمة السر بيننا هي الصمت وحده. في التاسعة خلت الشوارع واطفئت المولدات والبروجكترات، وتوقف صرير حديد الرافعات.. ولم يبق في الشارع غيري والخراب. آنذاك تسلق روحي هذا الحلم المخيف الماثل أمامي.

في ساعة متأخرة اندس إلى جانبي عامل من المطبعة.. قال لي انه لم يستطع النوم أبداً، بسبب الرائحة والكوابيس، صب لي الشاي وبقي لفترة صامتاً يرتشف الشاي ويراقب فوهة المطبعة. ثم جرني بإلحاح عجيب ليريني كيف مات رفاقه في العمل. تتبعت بقلق ضوء المصباح اليدوي المرتعش يخترق الظلمة والتجاويف.

- هنا استشهدت سمية.. هنا تحت هذه الصخور.. وصلت حتى منتصف الشارع.. ثم أعادها الصاروخ الثاني. أيؤلمك الحديث عنها؟.. أنا أيضاً. دائماً تتبدد همومي عندما أتصبح بابتسامتها الصبورة.. بصراحة، كنت أحسد زوجها.. أتذكرها بثوب الزفاف.. كأنها الآن أماً.. لا أصدق! جفف دموعه للمرة الثانية وأخذني نحو جوف العمارة. لماذا كنت طيّعاً إلى هذا الحد؟ أردت أن أذهب بالكابوس حتى نهايته، لعلي أعيه وأجرد تفاصيله المرة إلى سبب ونتيجة.

- هنا قتل محمد الصغير... أتذكره؟ وهنا أبو الغضب. ومن هنا سقط سمير..

كنت أتتبع مساقط الضوء بحركة حادة ومع كل التفاتة يطعنني وجه.. وجوه لماحة خاطفة، دامية أو جريحة في ثنايا الخراب. وجوه تسقط فجأة في هاوية مخيلتي الباردة، وتخترق الرائحة الخانقة ثم تنبت تماماً بين حاجبي.

وللحظة خيل لي أنني أسمع صرخة واهنة للمنكودين الذين دفنوا في سرداب البناية وأغلقت عليهم الحجارة كل منافذ النجاة.. دقوا السقوف والجدران بقبضاتهم العارية حتى هدهم التعب فقالوا كلمتهم الأخيرة للرب.

أغمض عيني لأسترجع، بتعمد مشدد، تلك الحياة الدائبة المتصلة التي كانت تسري في البناية: أناس يصعدون وينزلون، صبايا يغسلن السلالم، تلفونات لا تكف عن الرنين، والضاربات على الآلة الطابعة تتحرك أصابعهن برشاقة الراقصات.. ثم أفتح عيني فأعود للكابوس الماثل.. كانت الحياة، إذن، مجرد وهم، أو صدفة. لن ترى كل تلك الوجوه. فقد انقطعت الوشائج معها حينما انهدت بناية روحك.. طويلاً حدقت بالبناية... لا أريد أن أصدق أن الحياة بهذه الهشاشة، وأوشكت أن أقلق سكون الليل بصرخة حادة طويلة:

- إنها حياتي

بدأت أجمع مادة الكتاب الوثائقي الذي سأعده عن الكارثة.. أردت من خلال أحاديث الذين نجوا أن أصل إلى اللحظات الصغيرة الساهية التي سبقت الانفجار بثوان، ثم اللحظات التي تلته.

.. لكن الناس لا يملكون من الأحاديث ما يشبع خيال الكاتب. أغلبهم قال لي انه انقطع عن الحياة بعد لطمة هائلة أصابته ثم صحا على سرير المستشفى.

رفيقنا الكردي قال باختصار:

– أية مشاعر!؟ كنت في الطابق السابع فوجدت نفسي على الأرض..

– وخلال ذلك؟

– لا أعرف... لم تكن لدي أحاسيس.. فقد كنت أبحث عن شيء أتعلق به أو أرض أثبت أقدامي عليها..

طوال الوقت كنت أحوم حول رقعة الخراب التي ترفع الجرافات جدرانها. وبين فترة وأخرى يأتي الناجون من المستشفيات على عكازات أو بأذرع مجبّرة ومدلاة.. يدورون حول البناية بذهول، لا يصدقون ما حدث. يبحثون بين الأنقاض عن سقف كان يحميهم أو أرض مادت تحتهم، ويحاولون ربط المسار الذي انقطع.. هذا الشارع الذي حفظوا وتمثلوا كل تفاصيله انفصل عنهم تماماً. فالخراب الذي هبط عليه وافترش أرضه أنسانا تفاصيله السابقة. كأن الحياة التي كانت تدب عليه تمت إلى زمن بعيد بعيد. من يتذكر باعة الخضار الطازجة والنوفوتيه وباعة العصير؟ لكأن الشظايا التي أصابت كل قطعة فيه أصابت زجاج ذاكرتنا أيضاً. ذات ليلة تجمعنا في موقع واحد وأردنا أن نبدد الكابوس العالق بأرواحنا. غريزتنا دلتنا إلى الضحك والصراخ:

– أرأيت كيف دفع البدين الجدار بعجيزته؟

- وهذا الذي هوى من الطابق الرابع..

- أتدري ماذا فعل حين مست قدماه الأرض؟

- بحث عن فردة حذائه الثانية!

- والمحاسب كان يصرخ: فلوس الرابطة!

.. بين الذين التقيتهم تلك المرأة التي كانت تقطع الملوخية في شرفة البيت، وأمامها أطفالها الصغار يقلدون ما تفعله.. لقد رأت الطائرات لحظة النزول.. آخر ما رأته أطفالها ينقذفون عالياً مع أغصان الملوخية التي بأيديهم. بائع الخضار الواقف تحت البناية رآهم وقد طوح بهم ضغط الانفجار. لقد انقذفوا كحبات قمح طشها بذّار.. الحياة نفسها انفلقت في هذه البناية وخرج الموت من أحشائها خاطفاً ومخطوفاً.. تذكرت مشهداً في فيلم «المدرعة بوتمكن»: ينشغل الشاب الجريح على سلالم «أوديسا» عن جرحه بعربة الطفل التي تتدحرج فوق السلالم.. تذكرت هذا المشهد وأنا أسمع حكاية مشابهة من طفل سقط من الطابق الخامس. قبل أن يتحسس آلامه أو يطلب النجدة رأى عجوزاً تعلقت بأسانسير الطابق الرابع.. كان الدم ينزف من قدميها، ومع ذلك تجمعت كل قوة الحياة بأصابعها... أين ذهبت تلك العجوز؟ هل صرخت؟

... وأنا أبحث عن أوراق «البديل»، صدمني ذات يوم وجه شاحب أشعث: هذا أنا!؟ أردت أن أرى في مرآة الحلاق المحطمة وجه المرأة التي ابتسمت بارتباك، خجلة من شحنة الجمال التي أضافتها أصابع الحلاق البارعة. رأيت شيئاً من دم المرأة والحلاق على قطع المرايا المتناثرة بين الحجارة. ولكن، أية قطعة من تلك المرايا لم ترد أن تريني، ولن تريني، ما هو شكل الموت حين يباغت امرأة على كرسي الحلاق..

أتعبنا الحزن والبحث عن الوجوه، أتعبتنا مرارة الفم والذاكرة المثقلة برائحة

الموت، أتعبنا نصب الخراب الجاثم هذا فقررنا أن نمنح الكارثة معني.. صعدنا البناية بخفة وعلقنا علماً لفلسطين ولبنان على كل نافذة قذف منها طفل، وكل شرفة هوت بمن فيها.. خلال ساعات غطينا البناية بالأعلام ووقفنا قليلاً عند دكان الحلاق، رأينا في المرآة الخصلات الشائبة التي ابيضت خلال عقد طوله أربع أيام.. ثم كتبنا على الجدار: «ومع ذلك سنصمد!».

أرفع رأسي عن الورق وأحل أعصاب وجهي المشدودة فتصدمني وجوه الأطفال.. منذ متى كانوا واقفين بهذا السكون، يتفرجون على الرموز السحرية التي يتركها القلم على الورقة:

- هل ستقصف الطائرات المخيم؟

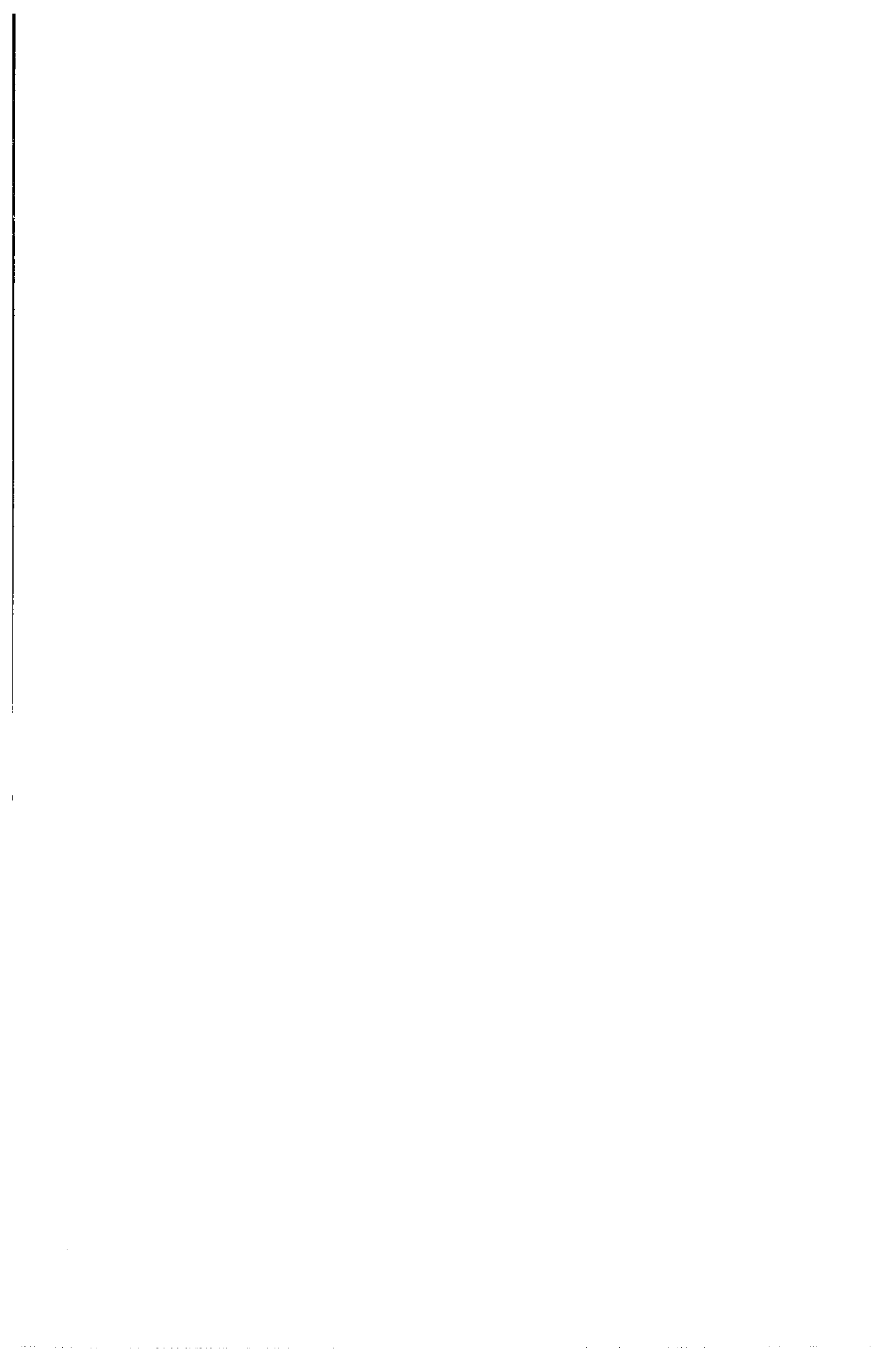
سألني الطفل الذي أراد أن أعلمه قراءة كتاب «كيم إيل سونغ».

- لماذا هذا السؤال، أنت خائف؟

- كل الفدائيين انتشروا مبكراً.

- إذن هناك احتمال بأن تأتي الطائرات.

هل عكرت أمن الصغار؟ أبداً فبعد قليل سيصعدون تلة التراب ليقصفوا المخيم بطائرة صنعوها من غطاء مرحاض.. لهم سأترك أوراقي هذه.



أوراق شاهد حرب

هذا الكتاب هو محاولة لتقديم مقاطع من تجربة الشتات الفلسطيني بعين مثقف عربي من العراق انخرط في هذه التجربة بكل كيانه على مدى أكثر من ربع قرن. فقد حضر الأغوار وسفوح جبل الشيخ، ورأى وجوه الذين نجوا من مجزرة تل الزعتر وسجل تجربتهم، وشهد الموت الذي حملته الطائرات الإسرائيلية إلى الفاكهاني في بيروت الغربية وكتب عنه.

ولعلّ أشد صفحات هذا الكتاب تأثيراً هي التي تشمل المقابلات «الرهيبة» التي أجراها مع الناجين من مذبحة تل الزعتر. ففيها يقدم الكاتب الحدث الرهيب، بكل بشاعته، على ألسن الذين نجوا، بشكل يصدم حتى أكثر الناس هدوءاً واستعداداً للقبول بالواقع.

وإذا كان ملف مذبحة صبرا وشاتيلا قد فتح من جديد بعد عشرين عاماً، فإن كتاب زهير الجزائري يذكرنا بأن علينا أن لا نغلق مذبحة تل الزعتر، التي لم تكن إسرائيل هي الأخرى بعيدة عنها وعن الذين اقترفوها.

صورة الغلاف: مخيم عين الحلوة
بعد الاجتياح الإسرائيلي على لبنان ١٩٨٢